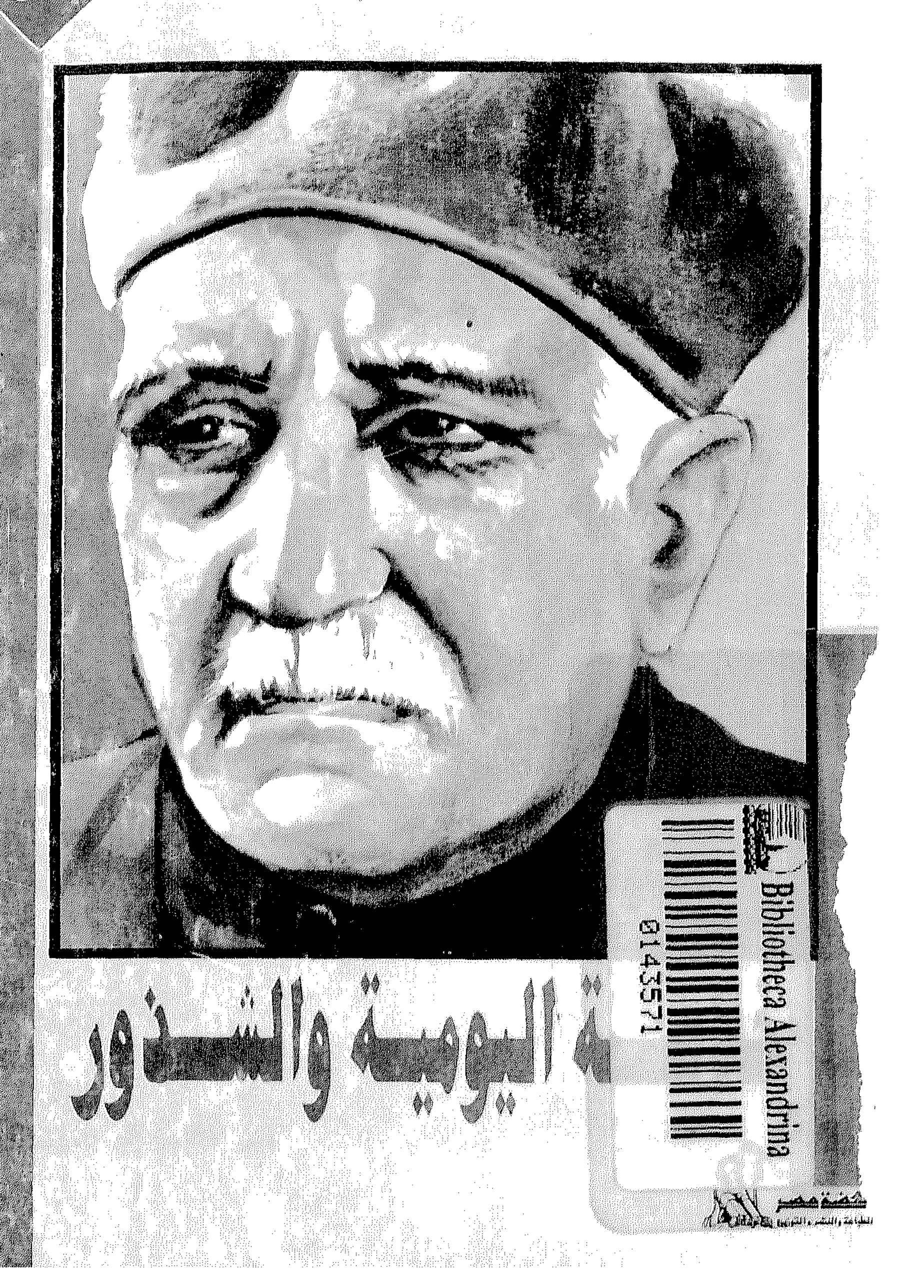
عباس محمود العقاد

٤١



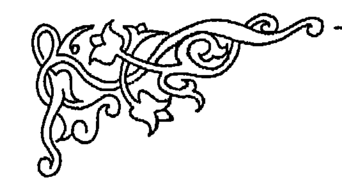
ة اليومية والشذور

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع



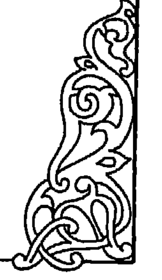


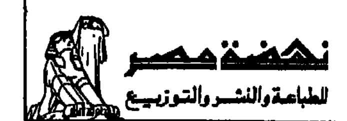




خُلاصة اليَوميّة وَالشّذوُرْ

عباس محمود العقاد





اسم الكتـاب : الخلاصة اليومية والشذور
اسم المـؤلف : عباس محمود العقاد
تاريخ النشـر : ابريل ١٩٩٥
رقـم الأيداع : ٤١٥٣/ ١٩٩٥
ترقيـم الدولى : 3 - 0375 - 14 - 977 I . S . B . N
الناشـــــر : دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة ج . م . ع
تلـيفـون : ٥٩٠٩٨٢٧/ ٥٩٠٨٨٩٥/ ٣٤٦٦٤٣٤/ ٣٤٧٢٨٦٤/ فاكس : ٥٩٠٣٣٩٥
ص . ب : ٩٦ الفجالة – ١٨ شارع كامل صدقى القاهرة

مقـــدمــــة

يعرف قارىء العقاد أن كلام العقاد فى أبسط الأمور وأهونها لا يقل شأنًا عن كلام العقاد فى أعظم الأمور وأكثرها خطرًا ، فالعقاد هو العقاد فى أبسط كتاباته وفى أكبرها شأنًا وذلك لأن العقاد عاهد نفسه منذ أمسك بالقلم أن يكون كاتبا مفيدا نافعًا وأن تكون حياته كلها التزاما للقلم ولخدمته ولرعاية قضاياه ، فالعقاد لا يلتزم فى كتابته كما قد نقول فى لغة هذه الأيام ولكنه يجعل حياته كلها إلتزاما للقلم ورسالته .

لهذا لا نكاد نشرع فى قراءة هذه الفصول الأولى التى وجهها قلمه والتى رعاها بفكره فى أول عهده بالقلم حتى نحس بأننا إزاء فصول تعبر عن مكون فكره وجوهر مشاغله الفكرية والأدبية وحتى ندرك أبعاد روحه فى تطلعها نحو اكتشاف الطريق الذى يليق بشخصه والذى يجدر به أن يتابعه وأن يحقق من ورائه مهمة الكاتب الحريص على كرامته وعلى أسلوبه .

ولا تملك بعد إستعراض فصوله الأولى إلا أن نعترف بأن العقاد لم يكن يتحسس طريقه وحسب فى هذه الفصول وإنما كان يرسم معالم خط طويل من التفكير والجهد والتدبير والعناء فقد زج العقاد بنفسه منذ أول كلماته فى خضم تيارات الفكر العالمية على نحو لم يسبق إليه مناقش مبادىء الفلسفة العويصة بأسلوبه المباشر الجميل وبعباراته العقلية الثمينة وتحدث عن جملة فلاسفة غربيين أبرزهم

شوبنهور ونيتشه وعالج موضوعات تمس الاشتراكية وتمس كيان المجتمع واللغة والأدب والشعر والفن وتحدث كثيرا عن الأساطير اليونانية وحاول أن يصل بين الفكر العربى والفكر الغربى بأسباب ووشائج وحصن النشء على أن يغترفوا من مناهل العلوم الأوربية المستحدثة وأساليبها الثمينة .

ولم يأت ذلك كله عرضا فى حياة العقاد لأنه توسم فى نفسه منذ البداية أنه قادر على أن يخلق شيئا جديرا بإهتمام الأجيال كلها وأن يضع اللبنات الأولى فى بناء فكر مدعم بالعقيدة وبالاخلاص وبالقدرة النافذة مما لم يعهده المجتمع من حوله فكان الكتاب الأسلوبيون يملئون الصحف والمجلات والكتب فى ذلك الوقت بأبحاثهم الإنشائية البحتة وبمقالاتهم الأدبية الخالية من الإهتمام الجاد ومن التركيز الفعال السليم ويقضون كافة وقتهم فى إنشاء العبارات إنشاءً وفى تحرير الأبواب على سنة القدماء فانبرى العقاد لهم يكره التقليد ويأنف من التعبير المرتجل وتستهويه العبارة الذهنية الهادفة ويحاول أن ينير الطريق أمام شباب الجيل بأثره ليجد من وراء كلماته النموذج الحقيقى لأسلوب الكاتب الذى يكره التقليد ويحارب التعبيرات المحفوظة وينأى بأسلوبه عن متابعة السلف وينفر من التكرار وتقصيع الجمل وترديد المترادفات وبطء التفكير ورتابة الفقرات ... يفعل العقاد ذلك كله من أجل ترسم خطى جديدة ومن أجعل ابتعاث دماء شابة ومن أجل بث النضارة فى الأفهام والعقول وفى الأقلام والكلمات .

ومن بداية الطريق يشعر القارىء بأن الكاتب نشأ ليعانى وخلق ليشق عباب تيار ضخم وليحمل أعباء التبعات والمسئوليات فى التوجيه والرأى فهو لا يكتب شأن غيره من كتاب ذلك الوقت ليرضى الكلمات بعضها إلى جانب بعض وإنما لينفذ إلى العقول وليبنى خطة المستقبل ولهز المشاعر والقلوب .

ونحن إذا نقدم هذه الباقة من فكر العقاد وأدبه إلى جمهور القراء فى اللغة العربية نهدف إلى إظهار بشائر فكرة فى أول عهده بالكتابة حتى يتبينوا الجذور والبراعم الأولى التى أينعت فوق قلم العقاد وحتى يعرفوا أين وجد العقاد بداياته وأولى خطاه وسنعمل دائبين على إظهار كل مؤلفات العقاد التى لم يعد يعرفها القارىء بأن الكاتب نشأ ليعانى وخلق ليشق عباب تيار ضخم وليحمل أعباء التبعات والمسئوليات فى التوجيه والرأى فهو لا يكتب شأن غيره من كتاب ذلك الوقت ليرضى الكلمات بعضها إلى جانب بعض وإنما لينفذ إلى العقول وليبنى خطة المستقبل ولهز المشاعر والقلوب .

ونحن إذا نقدم هذه الباقة من فكر العقاد وأدبه إلى جمهور القراءة فى اللغة العربية نهدف إلى إظهار بشائر فكرة فى أول عهده بالكتابة حتى يتبينوا الجذور والبراعم الأولى التى أينعت فوق قلم العقاد وحتى يعرفوا أين وجد العقاد بداياته وأولى خطاه وسنعمل دائبين على إظهار كل مؤلفات العقاد التى لم يعد يعرفها القارىء الحديث خدمة لفكره وحرصًا على أن تتم صورة العقاد فى أذهان محبية من أول عهده بالقلم إلى آخر حياته .

محمود أحمد العقاد



كلمة

«من أراد أن يقرأ عن الناس»
«والعالم مايسره فيخلق للكتاب»
«ناسًا جددًا فى عالم جديد»

تدور هذه النبذة على نقط ثلاث :

أولا : أن كل ظواهر هذا الكون ، علويها وسفليها ، ظاهرها وباطنها نتيجة تفاعل «القوى» المختلفة . وكذلك الأمر فى الاجتماع البشرى .

ثانيا : إن اللذة والألم . وبعبارة أعم . المنفعة والضرر هما الدعامتان اللتان عليهما تقوم كافة الأخرق البشرية .

ثالثا : إن الإنسان حيوان راق ولكنه لا يزال حيوانًا . فمن كان فخوراً بعالمه شديد الإعتداد بإنسانيته فهى لا تروقه وربما نفر منها طبعه . ومن كان يقرأ ليقتنع أكثر مما يقرأ ليرضى فإياه عنيت بنشر هذه اليوميات ؟

عباس محمود العقاد

الجامعة الإنسانية :

إن انفراد كل صقع بخصوصية تميزه عن سواه وتقدم الناس إلى الاشتراك جميعًا في الحاجة إلى تلك الخصوصيات بنسبة اتساع مطالبهم تبعًا لتقدم العمران مما يدل على أن كل الناس مرتبطون بكل الأرض وأن حواجز الأوطان ستطمس معالمها لتصير الأرض الوطن العام لنوع الإنسان .

وهذه الحركة الاقتصادية التى جاذبت بين أبعد الشعوب لتبادل المنفعة ستؤدى حتما إلى توحد المصالح العامة بين الأمم بحيث تتضامن كلها فى الانفعال بالعوامل الاقتصادية التى تؤثر على بعضها وهو ما يؤذن بانقضاء الحروب وسيادة السكينة والسلام .

ومازالت العوامل الاجتماعية منذ القدم تقذف بالإنسان فى دائرة أشبه بزرد الماء يتسع محيطها شيئًا فشيئًا فيشمل فى كل دور ما كان خارجًا عنه فى الدور الذى تقدمه ، فإن تكون القبيلة من العائلة والشعب من القبيلة والأمة من الشعب والجامعة من الأمة يؤذن بأن الخطوة التالية ستتقدم بنا إلى الغاية التى طالما اشتغل كبار المصلحين لتحقيقها . وهى دخول أمم الأرض جمعاء تحت لواء جامعة واحدة . وهى الجامعة الإنسانية .

الفضيلة الرذيلة :

الفضيلة والرذيلة كلمتان لما اصطلح جماعات الناس على الاعتراف به أو انكاره باعتبار نفعه أو ضرره . والمعروف والمنكر وهما من

مرادفاتهما فى العربية تؤديان هذا المعنى تمام الأداء . فما كان يعد فضيلة عند قوم يعد رذيلة عند قوم آخرين تبعًا لما ينجم عنه من النفع أو الضرر عند كل منهما . وربما العمل الواحد فى الأمة الواحدة يعتبر فضيلة فى هذا الزمن أو ذاك ورذيلة فى زمن آخر .

انحطاط الشرق :

علة انحطاط الشرقيين انهم جعلوا لتنازع البقاء ميدانيْن فلم يبالوا أن يخسروا الصفقة فى هذا العالم ليغنموها فى العالم الآخر . وساعدهم على ترك الاشتغال بشئون هذا العالم أن خصب الطبيعة فى الشرق قد جعل طلب الضرورات المعيشية ممالا يلجى إلى التدافع والزحام كما هى الحالة فى الاصقاع التى لا يأتى فيها استثمار الرزق وتوفير أسباب الحياة إلا بوسائط الكد والاستنباط . فكانت الدعة والرخاء من أكبر العوامل التى صرفتهم عن عالمهم إلى تطلب السعادة الكمالية فى سواه .

جنون النبوغ :

إذا كان الجنون بنوع ما عبارة عن مخالفة ما جرى عليه العرف بين الناس فالنبوغ نوع من الجنون . فان النابغة يستهين بالتقاليد المرعية بين الجمهور لأنه لا يعرف وجهًا للتمسك بها إما لأنها عقيمة فى ذاتها أو لأنها كانت صالحة أو ضرورية فى زمن عن الأزمان ثم عادت غير ضرورية فى الوقت الحاضر .

التشبيه الشعرى :

ملكة التشبيه تقوى حيث تضيق دائرة الأشياء فإن المتكلم يحاول أن يقرب إلى سامعه مالا يعرفه وهو كثير بتشبيه بشيء مما يعرفه وهو قليل . ومن ثم كان أهل البدو والريف أقدر على التشبيه من الحضريين وسكان الأمصار . ولقد كان الشاعر دائمًا أسبق من العالم فى التاريخ فإن الإنسان يحس أولا ثم يفتكر . فتسخو القرائح فى عهد البداوة وينبغ الشعراء فى الأنحاء التى لم يستبحر فيها العمران أكثر مما ينبغون فى غيرها .

إرادة المصرى :

المصريون لم يشعروا بافتقارهم إلى الإرادة إلا بعد أن قسرتهم المزاحمة الأجنبية على الأعمال التى للإرادة دخل فيها . فأما قبل ذلك فكانت أعمالهم من أغنى الاعمال عنها . فلا اعتدال الجو ولا ارتفاع النيل ولا امتناع الآفات ولا جودة المحصول مما يترتب على توجيه إرادة الزارع . بل كل ما يحتاج إليه فى صناعته شغل آلى شاق بعيد عن إشراف القوى العقلية .

بقايا الحيوانية فى الإنسان :

العواطف عبارة عن انفعالات جسدانية لا سلطان لأعمال العقل عليها . وهى فى الإنسان راجعة إلى أقدم عهده بالهمجية بل بالحيوانية الأولى أيام كانت كل أمياله وأطواره أفعالا تقوم بها وظائف جسده من تلقاء نفسها حسب مطالبها من سد جوعه أو قضاء شهوة أو رى ظمأ أو دفع أذى . فالرجل الهمجى ومثله الجاهل الفطرى ليست

مدركته إلا مجموعة إحساسات عالية أو خسيسة ليس للنظر والتروى مجال بينها . وما كان فى جميع حالاته إلا آلة تقذف بها طبيعته حيث شاءت . ولكنه فى المجتمعات الراقية حيث يرتبط الرجل مع بقية الأفراد بواجبات وأصول جبرية ولا يعود حيوانًا مرسلا مع أهوائه وشهواته ، يضطر بحكم البيئة إلى الضغط على عواطفه انصياعا لأحكام المصلحة والعقل ويزداد كلما ازداد الإنسان حاجة إلى التعقل والاستغناء عن قوة الساعد فى حفظ ذاته .

فالقليل الذى بقى من عواطفنا وأميالنا اللدنية التى لا تجيبنا إذا سألناها لماذا ، مصيره إلى التوارى والاختفاء حتى يسود حكم العقل على جميع أعمال الإنسان .

العمل والأمل :

الغربى والشرقى يتشابهان فى أن لكل منهما غرضًا من حياته ولكنهما يتفاوتان فى التوفيق بين الأمل والقدرة على تحقيقه . فالغربى إذا طمح إلى أمر عمد إليه من طريقه فالجندى يحاول أن يكون قائدًا والمدروز تاجرًا والصانع صاحب معمل وهلم جرا . أما الشرقى فأمله مبهم غامض لا تتميز له وسيلة ولا تتضح إليه سبيل . يحب كل إنسان أن يكون أحسن إنسان كما لو كان يحب ذلك لإنسان سواه . أى من غير أن يأخذ للأمر اهبته أو يدبر له عدته . فكثر فى أقاصيصنا ذكر أمثال فص شبيك لبيك وبساط الريح وطاقية الإخفاء وقضيب السحر ومسحوق الكيمياء وغيرها مما يرد فى ألف ليلة والأحاجى التى يقصها عجائزنا على أسماع صغارنا قبل أن تفتح لهم أبواب

الآمال ، فينشأون على التراخي والتوكل وترك تحقيق أمانيهم إلى الصدفة والاتفاق .

الفيلسوف :

– ليس الفيلسوف صاحب المذهب الشاذ أو المبدأ الغريب ولا هو بالرجل الواسع الاطلاع أو المتفوق على غيره فى ملكاته ومواهبه . الفيلسوف الحقيقى هو الباحث الذى لا ينشد إلا الحقيقة . ينشدها لا ليراها فى شكل منتظر أو هيئة مرموقة أو ينظر إليها فى ظل مبدأ من المبادىء فيكفيها كما ترسم مخيلته وتوحى إليه موروثاته ومعتقداته وأغراضه . ولكن لتظهر أمامه كما هى بالوجه الذى تظهر به فى كل آن . عارية عن غواشى البراقش والزركشات ، وهو المفكر الذى لا يتسلط عليه رأى من الآراء أو يملك ذهنه غرض من الأغراض بل يأخذ فى البحث سواء لديه على أى نتيجة طلع منه . فليس فيلسوفًا ذلك الباحث الذى يقدم على موضوعه برأى مبدإى يتشيع إليه فيما هو بصدده أو ذلك السفسطائى الذى لاهم له من أبحاثه إلا أن يجد له برهانًا يسند إليه ماتلقاه من غيره عن طريق الوراثة أو التلقين .

الحسد :

ليس الحاسد هو الذى يطمع أن يساويك بأن يرقى إليك . بل هو الذى يريد أن تساويه بأن تنزل إليه . ومن هذا القبيل الرجل العياب الذى يتتبع عورات الناس وسقطاتهم لينزل بهم إلى مستواه ويتغافل عن حسناتهم عمدا لأنه يعلم من نفسه العجز عن الإتيان بمثلها .

المطالعة والتجارب :

التجارب لا تقرأ فى الكتب ولكن الكتب تساعد على الانتفاع بالتجارب .

الشعر والألفاظ :

الشعر صناعة توليد العواطف بواسطة الكلام . والشاعر هو كل عارف بأساليب توليدها بهذه الواسطة ، يستخدم الألفاظ والقوالب والاستعارات التى تبعث توًّا فى نفس القارىء ما يقوم بخاطره أى الشاعر — من الصور الذهنية . والألفاظ نوع من اختزال المعانى تشير إلى مالا يمكن وروده منها على اللسان أو هى رموز يقترن كل منها بخواطر وملابسات تتيقظ فى الذهن متى طرقه ذلك اللفظ ولا يشترك فى المدلول تمامًا . والكلمة فى لغة لا تفيد معنى مقابلتها فى لغة أخرى . فليست المعانى منطوية فى احرف كلماتها ولكنها ترمز إليها ولا مجرد النطق بكلمة يكفى لاستحضار معناها عند كل من يسمعها على السواء . فتختلف الكلمة الواحدة فى قوة استحضار المعنى باختلاف مدلولاتها وملابساتها عن السامعين والتفطن إلى هذا الفرق الدقيق بين معانى الألفاظ والتلطف فى آداء كل منها فى موضعه يدخلان فى الملكة التى يحتاجها الشاعر ليكون شاعرًا مجيدًا ولا بدَّ لها من أن يكون للشاعر استعداد فطرى لتقى العوارض والمؤثرات التى تقع تحت شواعره حتى يلم بأسرار النفس وكيفية تطرق الاحساسات المختلفة إليها . وأن يكون قد انطبع فى ذهنه نخبة من صور تلك الاحساسات ممثلة فى قوالب جماعة من فحول الشعراء ليعلم

بالمقارنة بينها أيها أحكم تمثيلا وأبلغ وقعًا وأسرع توجهًا إلى العاطفة المخاطبة به حتى يتسنى له أن ينقل ما يشاء منها إلى نفس غيره . ولا يحتاج الأمر فى الشعر إلى الجلاء والإبانة كما هو فى النثر فإنه كما تقدم يقصد به التأثير ولا يقصد به الاقناع . والعواطف قد تتأثر بالعبارة المفاجئة أشد من تأثرها العبارة ذات القضايا المرتبة والمعانى الجلية . فقل أن ترى كبار الشعراء يتكلفون الشرح والتفصيل فيما يريدون الأعراب عنه كما يتكلفهما المبتدئون منهم لأنهم أخبر بوسائل التأثير واعرف بالألفاظ التى لها وقع أبلغ من غيرها على الاحساس .

حب الظهور :

الشغف باستلفات الأنظار بشكل عام بين جميع الناس ولكن منهم قومًا يظهر كانهم يطلبونه بألسنتهم وقومًا كانهم يحرزونه بالرغم منهم ومن الناس .

التعصب الدينى فى المستقبل :

طبيعة الدين ليست عدائية وإن ظهر لأول وهلة كأن فى هذا القول شيئا من المخالفة للواقع .

حفظ الذات أقوى غرائز النفس الإنسانية . والعواطف المتفرعة عنه أقوى العواطف . تحرك الإنسان المؤثرات أولا تحركه بقدر ما تمس هذه الغريزة . والإنسان بطبيعته فى حالة سلم مع بقية الناس ، فالنزاع عارض طرأ من اشتراك انسانين فأكثر فى الحاجة إلى العروض الخارجية ، وأن مجرد وجود تلك العروض بحالة لا يظفر بها الأمر

غلب ، بين فريقين متساويين فى الحاجة إليها وعدم الاستغناء عنها ، يحسب فى ذاته إعلانا من كل منهما صريحا باشهار الحرب إلى أن يظفر أحدهما بحاجته .

فالدين باعتباره عقيدة مجردة لا يقتضى نزاعًا بين الناس . إلا إذا تجاوز حيز العقائد إلى الأشياء الخارجية التى تدخل فى معاملات الإنسان . كما يشاهد فى الأمم المتأخرة التى تجهل العلاقة الحقيقية بين الأسباب والمسببات والعلل والمعلولات . وأكثر ما يشاهد ذلك فى أمم القرون الوسطى وما تقدمها من عصور الكهانة والسحر .

فقد مر عهد ليس بالبعيد كانت الصلة بين العاطفة الدينية وغريزة حفظ الذات من أحكم الصلات . لا بالنظر إلى مستقبل الإنسان فى العالم الآخر فقط بل بالنظر إلى حياتنا فى هذا العالم أيضًا . فكان فرعون وشعبه يشربون دمًا أحمر من نيلنا العذب لأنهم لم يشأوا أن يدخلوا فى دين بنى إسرائيل .

كان كل شيء فى ذلك العهد إنما يحدث باشراف القوى الخفية مباشرة . فكان للسحاب عمال يسوقونه من بلد إلى بلد ، وللرياح والبحار خزنة يصرفونها بتقدير ويمسكونها بتقدير ، وكانت العوارض السماوية من كسوف وخسوف وهالات ومذنبات ورجوم ترصد من الأرض تارة كانها إنذار السخط وتارة كانها علامة الرضى ، وكانت الطواعين والأوبئة والمجاعات والصواعق والزلازل والطوفانات وغيرها من الجوائح الطبيعية تفسر كأنها نقمة الله حاقت الجنس البشرى عقابًا له على طغيانه وعصيانه . أما استنزال هذه البلايا -

فمع كونه كان مترتبا على مخالفة الإرادة الالهية – فإنه من حق طائفة اصطفاها الله من بين خلقه واختصها بعلم ما يرضيه وما يسخطه فلا ترد لها كلمة عنده ففى ذلك العهد الحافل بكل هذه الجهالات ما كان من الغريب أن يندفع الناس إلى الشقاق بسبب الدين ، بل فى الحقيقة بسبب كل شيء ومن أجل كل شيء يمكن أن يكون باعثاً على الشقاق . لأن هذا كان معنى الدين فى تلك العصور .

الحروب الصليبية :

ويظهر فى مبدأ الأمر كأن العقل الإنسانى استتر وكأن الضمير العام تنحى عن عمله ردحًا من الزمن ثارت فى اثنائه الحروب الصليبية بكل غرائبها التى اغرب ما فيها أن يمر بها الإنسان قرنًا ولا يدرك مقدار فظاعتها وشناعتها .

والعقل الإنسانى لم يستتر ولا تخدر بل كان على أتم ما يكون عليه عقل المجاميع فى مثل تلك الأيام . فكان الصليبيون يعاودون الكرة فى كل حملة بعزم متجدد وأسف على فوات الفرصة منهم فى الحملة التى تقدمتها لا شائبة فيه للندم . فلم تكن تلك الحروب ثورات حنق أو اندفاعات حماسة دينية وإنما هى حروب أصولية لم يفتها شيء مما يسبق حروب اليوم من التدبر وأعمال الروية فى جوهرية الأسباب وقيمتها من الأهمية . ونحن نغالى فى تزكية أنفسنا إذا ظننا أننا تصنع غير ما صنعوا لو أننا كنا موضعهم محاطين بمثل الظروف التى كانوا محاطين بها .

فهذا العالم الذى نراه أمامنا كان فى نظر آبائنا عالمًا مسحورًا

الباطن فيه أكثر من الظاهر . فكان مقسومًا إلى منطقتين . استولى الله على أحداهما وتنازل للشيطان عن الأخرى . والناس مختلفون فى رقم خريطته فما كان عند هذا الفريق من منطقة الله يعده الفريق الآخر من منطقة الشيطان .

فالصليبيون أغاروا على المشرق ليستخلصوا علم الله المقدس من حوزة اعدائه . ولو سكتوا عنه لما كانوا أهلا لأن يختارهم الله ويجعلهم شعبة ، ولا يرضون ذلك لأنفسهم إلا إذا رضوا لها أن يجردوها من كل صفات النخوة والشهامة وهى كل ذخر الرجل وفخره فى ذلك الزمان .

ومع ذلك فالخيار بين الرضاء بهذه المسبة وبين فظائع الحروب الصليبية لم يكن بالأمر العسير لولا خشية العقاب . فاى بلاءٍ وأى شقاء لا ينزله الله بهذا الذى ينفض من حول علمه ويتركه لأعدائه ؟؟ أن أحباط المسعى وامحال الزرع وتفشى الوباء أقل ما يتوقع من الجزاء على هذا النكوص المعيب !

وقد كانت العداوات تستقر وتهدأ بعد الوقائع الأولى لولا أن انقسم العدوان المتقاتلان بطبيعة الاقليم إلى شطرين – شرق وغرب متقدم ومتأخر . ضعيف وقوى . طامع ومطموع فيه . شطرين بطبيعة موقعهما لا يمكن إلا أن يتجدد العداء بينهما كلما عرضت أسباب الخلاف . وهى كثيرة لا تخلو منها معاملة من معاملاتهما المتبادلة .

التعصب فى العصر الحاضر :

هل يخشى أن تعود الإنسانية إلى مثل هذه المواقف فى الأجيال المستقبلة ؟؟ .

كلا ! فالدين قد نصلت صبغته عن العروض الخارجية . تقدمت العلوم الطبيعية فعرف الإنسان علل الأشياء وكيف ولماذا تحدث وايقن أنها لا تحدث من أجله ولا من أجل عمله . لم يعد رجال الدين وكلاء اشغال الله على الأرض يبيعون الرحمة والرزق لعباده بالمال ، وفى وكالاتهم وحوانيتهم التى يسمونها المساجد والكنائس . ولكنهم انقلبوا رجالا كبقية الرجال ليس فيهم من السر إلا ما فى كل إنسان . عرف الإنسان من أين تأتيه المنفعة ومن أين تأتيه الخسارة وأدرك أن تلك الطائفة لا يدلها على هذه ولا على تلك . وأنه لا يحق له أن تبحث عن السبب فى كلتيها إلا فى عنايته أو تقصيره فيما هو آخذ فيه . عرف أيضًا أن الأديان لا تجعل الإنسان نجسًا بطبيعته ولا طاهراً بطبيعته فهو لا يطلب من الإنسان كيفما كان معتقده الدينى إلا ما تقتضيه انسانيته وهى لا تستلزم أن يكون مسلمًا أو مسيحياً أو يهوديا ولكن كل ما تستلزمه أن يكون عضوًا عاملا فى بنية الهيئة الاجتماعية . وبعد ان كان كله فى قبضة ما وراء المادة أصبح للمادة كله . وارتدت الدينيات من العقل إلى زاوية ضيقة بعيدة عن مشاغل الحياة وعلائق الإنسان بالإنسان ، ومن الأرض إلى بقاع مقصورة على المعابد والمساجد والبيع . وهكذا كلما انحسر الدين عن بقعة عادت مجال وفاق ووئام بعد أن كانت ميدان نضال وخصام .

تقليد النساء :

النساء أسرع تقليدًا لانهن أشد غيرة . وهن أشد غيرة لان المشاكلة بينهن فى المناقب والمفاخر أقرب مما هى بين الرجال .

دلالة القصص على درجة الأفكار فى الأمم :

من العلامات على انحطاط الفكر ولوعه بالإغراق والاغراب فإن ذلك ليس معناه فى الحقيقة إلا الجهل بحقائق الأمور . ولذلك يعمد القصاص والرحالون فى الشعوب المتأخرة إلى تجسيم الحوادث والمبالغة فى وصف أبطالهم والتهويل فى الأخطار التى يفلتون منها وتكبير المغانم التى يصادفونها على غير انتظار والمشقات التى يلاقونها فى السياحات والأسفار لعلمهم أنهم لا يتمكنون من استفزاز استغراب قرائهم بغير ذلك . فيتوهم القارىء وهو يتصفح إحدى تلك الاقاصيص أن صاحبها يتكلم عن أناس من غير هؤلاء الناس وأنهم يقطنون بلادًا ليست كهذه البلاد بخلاف قصص العصريين فإنها لا تتضمن الا وقائع يكاد يشاهدها كل إنسان فى البيوت وعلى قوارع الطرقات .

وعلى هذا القياس مبالغات الشعراء والمؤرخين فانها تقل بقدر انتشار المعارف فى الأمة وتقدم ابنائها فى الوقوف على الحقائق والاهتمام بالجواهر دون الأعراض .

أخلاق الفرد والجماعة

الخلال الشخصية المستحبة لا يمكن أن تستمد أصولها من مصدر أشرف من كونها صالحة لحفظ الحياة . وكذلك الأخلاق الاجتماعية

فانها لا ترد إلى أكبر من كونها لازمة لصيانة كيان الجمعيات البشرية . والجماهير تقدم رجل العموميات وأن كانت تنفصه الخلال الشخصية على رجل الخصوصيات وأن كان مستكملا من هذه الوجهة لأنها تستفيد من الأول بأكثر مما تستفيد من الثانى .

الجماعات والأغنام

طالما تذكرت أغنام السودان وأنا أقرأ نظرية جوستاف لوبون فى كتابه روح الاجتماع : «أن الجماعات أسلس قيادًا من الأفراد» فإن قيادة شاة واحدة من تلك الاغنام عمل شاق يعى به اشداء الرجال مع أن سوق قطيع كبير منها لا يحتاج إلى أكثر من ثلاثة أطفال صغار .

جوفة العالم

العالم بأسره يشترك فى تمثيل رواية مضحكة وادعى مناظرها إلى الضحك أنهم لا يضحكون من أنفسهم وهم يمثلون كأنهم جادون فيما يعملون .

المضحكات

المضحكات ليست بالقليلة ولكن الذين يحسنون صناعة الضحك هم القليلون . فليس من الضرورى أن نفتش عن رجل من أمثال أبطال موليير لنغرب فى الضحك . فإن فى كل رجل من الذين نراهم ونعاشرهم موطنًا للنقص وفى كل عمل موضعًا للكلفة والتصنع — والوادع الناعم البال ولو كان مغموراً بالشقاء ، ذلك الرجل الذى

يعرف كيف يفطن إلى مواطن الغرور والرياء من أعمال الإنسان فإنه لا يطبق فمه مادام يفتح عينيه .

الجمال والجلال

النفس الإنسانية يتنازعها عاملان قويان هما حب الحياة والخوف من الموت وبهذين العاملين يتعلق الشعور بالجميل والجليل . فالجميل كل ما حبب الحياة إلى النفس وأظهرها لها فى المظهر الذى يبسط الرجاء فيها ويبعث على الإغتباط بها . والجليل كل ما حرك فيها الوحشة وحجب عنها رونق الحياة . فالربيع والصباح والنور والصحة والشباب والحركة والمناظر الرائقة والخضرة والأبنية المزخرفة . كلها جميلة لأنها تنعش الحواس وتذكرها بالحياة . والشتاء والليل والظلمة والمرض والهرم والسكون والقفار المخيفة والأطلال الدارسة والصروح القوية المتينة التى تنبىء بتعاقب السكان عليها والمعابد والهياكل والقوى الطبيعية الهائلة . كلها جليلة لأنها تقبض الحواس وتميل بالنفس إلى التضاؤل والضعة أمام رهبة الفناء وعظمة الطبيعة وضخامتها . الجميل مظهر القدرة والجليل مظهر القوة . والنفس تقابل القدرة بالإعجاب والقوة بالخشوع .

الإعتراف بالنقص

لا يعترف الإنسان بشىء مما يشعر بنقصه إلا إذا كان يريد أن يتوصل من ذلك إلى الإشتهار بنوع ما من الكمال . فروسو والقديس أوغسطين وهينى لم يذيعوا كل تلك الأسرار الخفية التى سردوها فى اعترافاتهم — من غير أن يخشوا أن ينقلها سواهم على غير حقيقتها

أو تكون هناك ضرورة ماسة لإذاعتها - إلا طمعًا فى الإتصاف بمزية الصراحة الفلسفية أو الدينية وهى أكبر فى نظرهم من جميع تلك المزايا التى جردوا أنفسهم عنها بمحض اختيارهم .

الأطفال رجال صغار

نفوس الأطفال أصدق معرض تدرس فيه أخلاق الرجال فإن جميع ما يضحكنا من طباعهم كالأنانية والغرور الشديد والغيرة الحادة وحبهم المفرط لاستجلاب المدح والإعجاب يظل كامنًا فى نفوس الرجال . تتغير أشكاله وموضوعاته من الألاعيب إلى العروض الحقيقية وهو باق لا يتغير وإنما يضطرون إلى مداراته لأنهم لايجدون من يحتمله منهم كما كان يحتمله آباؤهم وأمهاتهم .

المساومة فى التجارة

كثرة اللجاج والمساومة فى بيوعنا تدل على أن تجارنا لا يحسبون حسابهم ولا يعنون بتقدير أرباحهم كما يوافق رؤوس أموالهم بل يدعونها عرضة لتقلبات الصدف إما إلى المكسب أو إلى الخسارة وربما رجع هذا الإهمال معظم السر فى اضطراب السوق المصرية وتذبذب الأسعار بين الهبوط والصعود .

حماية العرض

لا يمتدح الرجل بأكبر من نسبه القوة إليه كيفما كان مذهبه فى تفسيرها . ولا يعبر بأكثر من اتهامه يالضعف كيفما كان مذهبه فى تفسيره . والرجل يشتد حنقه للإعتداء على عرض لأنه دليل على

استضعافه ووهن جانبه . فقد كان الرجل يحمى النساء من قديم الزمن لأنه أقوى منهن وكان المنتصر فى عهد القبائل لا يعتز بقوته ويؤيد ظفره وتمام غلبته بأقهر من سبى نساء القبيلة المغلوبة وقد كان النساء يعجبن بالرجل بقدر حظه من الصفات اللازمة لحمايتهن كالنخوة والبسالة والفروسية والبطش والقوة فكان ميل المرأة إلى غير رجلها أو إغواء إمرأة فى حوزة رجل إتهامًا له فى ذات رجوليته ، ولذلك تشتد الغيرة على العرض فى الأقوام الذين تنحصر صفات الرجولية بينهم فى هذه المزايا الجسدانية . ولذلك أيضا كانت الأم أكثر إغضاء عن ذلة فتاتها من أبيها . وبعض قبائل البجاة تغض عن المعتدى على عرضها متى خرج من غير باب الخص لأنهم يعتبرون ذلك إقرارًا منه بالعجز عن مواجهتهم بالعدوان .

ثمرات اليراع :

إلا لا تعـــدن اليراعـــة آلـــة
تسوق لك الرزق الذى بت راجيا

يـراع الفتـى عـود تعـــرى لحاؤه
ولا يثمر العود الذى عاد عاريا

منظر على عبر مرسح

كان صاحب هذه اليوميات فى فندق (كتراكت) بأسوان حينما شاهد المنظر المحكى فى هذه القطعة : نزلت بذلك الفندق بين السائحات فى الشتاء الماضى فتاة كانت موضع إعجاب كل من رآها . وامتازت بشعرها الضافى الطويل على غير المألوف فى نساء الغرب .

وكأنها أرادت أن تداعب عشاق جمالها الكثيرين . فبرزت يومًا فى شرفة غرفتها بأزار النوم وهى تمشط شعرها وقد جلل ظهرها وجانبًا من صدرها ونادت بالغلام فأعطته مظلة تظاهرت كأنها تريد أن توصلها إلى أمها وأشارت له إلى سيده فى ردهة الفندق فجعل الغلام يغدو ويروح ويعرض المظلة على سيدة بعد أخرى وهو ناظر إلى جهتها وهى تسير إليه فاستلفت هذه الحركة إليها الجالسين فما كادت تتحول إليها أنظارهم حتى انفتلت إلى داخل الغرفة وأومأت إليهم برأسها من وراء الستار كما لمفعل الممثلون وتركتهم يضحكون ويصفقون كأنهم يستعيدون هذا المنظر الشائق :

أشرقت من جوانب القصر كالـز
هرة لاحت من جانب الأفق سرًا

فى أزار يضم جسما من البللور
ر أصفى ومن جنى الورد اطرى

وتمشت فألـــقت الـــريح منها
كشعاع الأصيل فى الصيف شعرًا

ثم نـادت بناعـم يشبـه الفيشـا
رجـــرا ويشبـــه العـــود نبرا

زودت أمهـــا بمسجـــاة[1] خـــز
مـا تقـى كالهواء للشـمس حـرا

---

(١) المسجاة كلمة رأيت أن أعرب بها ال (Parasol) وهى مظلة السيدات .

أرسلتها لها ولو علقتها
فوق أهداب شعرها كان أحرى
ووقتها شمسا ولو نشرته
فى ذرى القصر أصبح الظهر فجرا
أم تراها لو خاطبت أختها الشمس
أكانت تعصى لها الشمس أمرا

تربية المرأة

لاينبغى أن يقتصر الغرض من تربية البنت على تعليمها كيف تكون زوجة ، إلا إذا كنا نعلم الفتى فى المدارس ليكون زوجا . والواجب أن نعنى أولا بتعلمها ما تنشأ به امرأة قادرة على النهوض بنصف أعباء الهيئة الاجتماعية : فإن العشرة الزوجية ليست حرفة يتلقى الطالب أسرارها فى دور التعليم ولكنها عمل كسائر أعمال الحياة يحسنه الإنسان أو لايحسنه بمقدار ماله من الحذق والاختيار .

مذهب نيتشه

نيتشه عدو الضعف يريد أن يجعل العالم قويًا لا بتطهيره من الضعف ولا بأن يهتم بترقية علم الطب ولكن بما هو أيسر عليه من جميع ذلك . باستئصال الضعفاء منه . يصبح أشياعه أنبذوا الضعيف ولا تأخذكم يه رحمة لأن الرحمة تعاكس ناموس بقاء الأصلح فى مهمته وتبقى على من لا يستحق البقاء .

ولكن من هو القوى ومن هو الأصلح للبقاء ؟؟
هذا مالا يمكن أن تعرفه من نيتشه ولا من اشياعه

إن القوى البدنية لم تعد ذات شأن فى تمييز الصالح من غير الصالح فالضعيف والقوى يدرآن عن نفسيهما بسلاح واحد . وأضعف الضعفاء الذى لا يقوى على رفع أخف حمل عن الأرض فى وسعه أن يقتل ستة من جبابرة المصارعين بتحريك أنملته . ومع ذلك ففى أى وقت نبدأ بحصر الضعفاء والأقوياء ؟؟ ومن ادرانا أن هذا السقيم الفانى الذى نقتله اليوم لا يصبح صحيحا معافى غدًا خصوصًا إذا نظرنا إلى ما يرجى من تقدم وسائل العلاج عامًا بعد عام ، وأن هذا الغليظ الشديد الذى نبقى عليه لا يصبح مثله سقيما فى يوم من الأيام .

ثم من هو الأصلح وكيف نعرفه وبأى معيار نقيس صلاحه ؟؟ وإلى من نكل فرز الصالح من سواه ؟؟ وفى أى عمل نجربه . أفى عمل واحد أم نتركه حتى نردده على الأعمال . وهل نعتبر صلاحيته بالنسبة إلى فترة محدودة إو بلد معين أم يكون ذلك بالنسبة إلى جميع الأزمان والبلدان .

ومن أدرى هؤلاء الجراحين الذين لا يحسنون غير البتر علاجا لعل الرحمة لا تكون من مقتضايات الرق الانسانى ولوازم الاجتماع البشري إذا كان أصلها غير مشاهد فى الحيوان ؟؟

إن نيتشه واشياعه هم الذين يعاكسون بهذا التداخل ناموس بقاء الأصلح فإنهم بدلا من أن يتركوه مكبًا على عمله ينفى الضار ويبقى النافع يعترضونه فى وظيفته ويتحكمون فيما من شأنه واحده الفصل فيه .

تغيير المألوف

أصعب ما على النفوس تغيير مألوف . فلو كان هناك نازلة تلم بالإنسان من دون أن تغير شيئًا من مألوفاته لما أحس لها بألم . ولذلك تخف وطأة الحوادث ويهون وقعها على من تتوالى عليهم المصائب ويمارسون تقلبات الأيام .

ولو أن الرجل ينظر إلى غير الدهر إلى العوارض التى يستهدف لها كل إنسان ولا يعد أن تباغته فى كل آن ومكان لتلطف عنه لذعتها التى يتلوى من قوارض آلامها الذين تداهمهم على غرة واطمئنان . وكذلك آلام الشيوخ . حزن ساكن لا يخالطه ذلك الوجع الحاد الذى يمتزج بآلام الشباب .

الموت

الموت أعم المصائب وقوعًا ولا يزال أشدها إيلامًا وأقلها قبولا للعزاء . على أن ذلك لا يفيد أنه غير مألوف ولكنه يدل على أن الانسان لا يجزع لمصاب غيره كما يجزع لمصاب نفسه .

تواضع الملوك

الرعايا تحتسب للملوك تواضعًا ما ليس بتواضع فى الواقع . فلو علم الملك الذى يتنزل إلى مخاطبة السوقة أن فى ذلك ما يغض من قدره بل لو علم أنه لا يرفع مكانته عندهم لما فعله .

الاثرة :

الرجل الايثارى فى الحقيقة يتحرى مصلحته أكثر من الرجل الانانى . فان الأول يحسب حساب مصالحة فى الحاضر والمستقبل والثانى يقصر نظره على المصلحة الحاضره .

على أن الاثرة الممقوتة ليست هى التى نفسرها بأن يحب الإنسان الخير لنفسه . ولكنها الاثرة التى أساسها جهل حقوق الغير أو تجاهلها وهى أثرة عتاة المستبدين والأطفال ومن على شاكلتهم من الجهل بعواطف الناس أو عدم الاضطرار للاعتراف بها . وهى أيضاً أثرة من يطلق له العنان لحب نفسه وارضاء مطامعه ، وشر هؤلاء ضررًا على الاجتماع فى وقتنا الحاضر فئة الرأسماليين الذين تتركهم الحكومات يجمعون الأموال ويتمتعون ويتلذذون ويبذخون بما يسرقونه من أتعاب العمال وأرزاقهم . وهذا هو الخلق الذى لا يحسن أن يكون فى شخص يعيش بين الملايين من أمثاله ويجب أن تطارده الهيئات الاجتماعية بكل وسيلة لأنه آفة الاجتماع .

الحاجات والتقدم :

حاجات السواد الأعظم منا لا تزال حيوانية صرفة . أكبر علامات المرض عندنا الحمية عن الطعام . فلان لا يأكل ولا يشرب أى أنه بلغ أشد الداء أو أشد الغم . يبكى الطفل فلا يخطر لأمه أن أمرًا يبكيه غير الجوع : يحرم أكثرنا أكل الفاكهة وشم الزهور وشهود الحفلات وغشيان الملاعب والمتنزهات لأنها كما يقولون لا تسمن ولا تغنى من جوع . يكد فلاحنا طول يومه بل قل طول عمره ليجد

ما يمسك رمقه ثم لا تسمعه يتذمر أو يشكو كما يفعل الفلاحون فى الأقطار الأجنبية لا لأنه يزهد كسقراط أو يتقشف كديوجنس ولكن لأنه يجهل ما يطلبه بعد حشو معدته ودفء جلده ، وإذا سمعته يشكو فقل أن تسمعه يتظلم لأنه لا يحدث نفسه بأن هناك أحدًا يظلمه حقًا من حقوقه . حاجات ما أخسها لا يمكن أن تقنع العجماوات بما هو أخس منها . فإذا صح أن رقى الأمة إنما يحسب بقدر تعدد مطالب الفرد ، فما أبعدنا عن الرقى الحقيقى وما أبعد الرقى الحقيقى عنا .

الرياء :

ما رأيت مرائيا إلا وجدته مغتابا تمامًا . والجراءة على الناس فى غيبتهم كالتزلف إليهم فى حضرتهم . كلاهما علامة الجبن والصغار .

الكلام والأوزان :

يظهران قوالب الجمل وأوزان الكلمات أثبت انتقاشًا فى الذهن من حروفها فربما نسى الإنسان معنى الكلمة أو حروفها فربما نسى الانسان معنى الكلمة أو حروفها ثم ذكرها بوزنها وقد يسبقه لسانه فيخلط بين الحروف مع حفظ الأوزان . فإذا كان يريد أن يقول مثلا وطفقا يخصفان نطق بها وخصفا يطفقان كما نسمعه أحيانًا من بعض الحفاظ . ولعل سرعة استظهار الأشعار والكلام المقفى سببه مثل هذا .

العالم فى نظر أكمه :

حاولت أن أقف على صورة العالم فى مخيلة غلام أكمه فقال لى

أن يراه كأنه هيولى مضطربة فى ظلمه قائمة لا أول له ولا آخر . قلت لا تأس يابنى . أن أنفذ الناس بصرًا أو بصيرة لا يرى منه أكثر من ذلك .

الموسيقى

– التلازم متين بين الأصوات والانفعالات الباطنية وهو أمتن بين الانفعالات والحركات البدنية . فإن الحيوانات والوحوش والهمجيين والأطفال والنساء أحيانًا ، تترجم عن شعوراتها بالصياح على كيفيات مختلفة مقرونا فى الغالب ببعض الحركات البدنية . ثم أن لكل من حالاتنا النفسانية لهجة خاصة وكل لهجة لها هيئة تناسبها . فلهجة المسرور والظافر والشاكى والحزين والمتألم والغضبان تتباين تباينًا يشعر باختلاف مصادرها . وإنك لتسمع الخطيب الذى لا تفهم لغته فتعلم من تغير لهجته وارتفاع صوته أو انخفاضه إن كان راضيًا أو ساخطًا حاثا أو محذرًا مبشرًا أو منذرًا .

فإذا وقع الموسيقار صوتا تنبه الاحساس الذى يناسبه على الأثر فى نفوسنا . كانهما فيها متلازمان لا ينفكان . وفى الأصوات التى يشتد لها طرب السامع يتنبه مع ذلك الاحساس حركة بدنية مطاوعة للنغم الذى يسمعه . فيهز رأسه أو يحرك عضوًا من أعضائه . وهذا أول درجات الرقص ثم يرقص . وقد لا يملك نفسه مع الرقص من الترنم بالصوت الذى يسمعه أو الغناء بما على وزنه من الكلام المفهوم .

فنحن فى قبضة انفعالاتنا تتلاعب بنا كما تلعب الأم بوليدها بين ذراعيها . نرقص ونثب ونصيح بالرغم منا كما يفعل الهمج والعجمات . وترانا فى ألطف مظاهر أنسنا نحن إلى همجيات أولئك الجدود .

نهاية الرق

الرق العصرى كفيل بأن يصل بالانسان إلى درجة تكون فيها إرادته قانونه وترفع عنه كثيرًا من سلطة الحكومات عليه .

الميراث :

ليس للانسان حق أن يحتجز من الثروة العامة إلا بقدر ما يقوم لها من العمل . فالرجل يسقط حقه فى التصرف بثروته متى انقطعت أعماله لموته . وعلى الهيئة الاجتماعية الانفاق من ريعه على من يهمه أمرهم من بعده .

يترك الرجل لابنك ضيعة . والضيعة قبل عشرة أعوام لا تكلف صاحبها إلا سعيا طفيفا ولكنها لا تنال بعد عشرة أعوام إلا بتكبد المشاق والصعاب . فيتمتع ذلك الابن الكسول بجزء من الثروة العامة من غير أن يقدم لها عملا فى نظيره وإلى جانبه رجل مجد نشيط يقطع عمره كدًا وكدحًا دون الوصول إلى اقتناء ضيعة مثل ضيعته . وهو خلل متشعب فى تقسيم ثروة الأمة لايستقيم حال الجمعية البشرية إلا بتلافيه .

فراسة المرأة :

المرأة ألطف زكانة وأفطن إلى تشابه الملامح من الرجل . فقد رأيت بعض النساء يرين الطفل الصغير قبل أن تتشخص ملامحه فيحكمن بأنه من آل فلان وأن فيه شبه العائلة الفلانية وقد لا يبدو لغير المتأمل أن بينهما أدنى شبه . والظاهر أن كثرة اشتغالهن بتجميل الملامح قد أكسبهن هذه الخبرة فيها .

التاريخ القديم :

كتب التاريخ القديم أقرب إلى الإحصائيات أو سجلات المواليد والوفيات منها إلى التاريخ . فإذا قرأت فصلا عن رجل عظيم ذكروا لك اسم ابيه وأمه ويوم ميلاده ويوم وفاته والبلد الذى نشأ به والبقعة التى قبر فيها . فعرفت اسمًا ولقبًا ويوما وبلدًا وقبرًا ولكنك لم تعرف رجلا .

الطلاق :

إن أكثرنا يظن أن المرأة من متممات زينة البيت فكما أن فى البيت متاعًا وأثاثًا عن كل صنف . كذلك يحسن أن تكون فيه واحدة أو أكثر من صنف النساء وأن بعضهم ليغير زوجته مرارًا ولا يغير ملاءة سريره .

تعدد الزوجات :

لا أعلم لماذا يسوغ للرجل أن يستحوذ على أكثر من أربع نساء ولا يسوغ للمرأة أن تطمع فى أكثر من ربع رجل إن لم يكن أقل ؟؟

أقذار المجد :

من حسن حظ العظماء أنهم وحدهم الذين يطلعون على الدنايا التى يتلطخ بها طلاب المجد الكاذب .

التغرير :

التغرير بالعقول عمل يسير ولكن نزع الغرور منها من أصعب الأمور ولأن تمنى الإنسان بالباطل أحب إليه من أن تيئسه بالحق» .

أحاديث الشبان :

من شبان العصر من إذا جلست إليهم لتنصت إلى محادثاتهم حرت فى تحديد موضوعها . يبدأ أحدهم بالكلام ولا يتمه ويسأل السؤال ولا ينتظر جوابه . يغنى ثم يقتضب الغناء ثم يضحك . ينتقل من كلام تافه إلى كلام أتفه بلا مناسبة أو صلة بين الكلامين . بحيث يسأل الإنسان نفسه أما كان يمكن أن يستغنى هذا عن لسانه ؟ يشير بيديه ويهز رأيه وقدميه . ويدور هنا وهناك بغير غرض ولا موجب . كأنما عليه أن ينطق بقدر معين من الكلمات ويأتى بعدد معين من الحركات فهو لا يقصد من كل إشاراته وعباراته إلا أن يصيب العدد المطلوب .

الحرب :

من أقوال فتزجر الدعلى ما أذكر - «إن الحرب تجر إلى الفقر والفقر يحث على العمل والعمل يورث الغنى والغنى يسبب الشقاق والشقاق يفضى إلى الحرب ...»

ولا أظن أن هذه السلسلة ستحفظ نسقها فى هذا الزمان . بل

أرى على العكس من ذلك أن السلم سوف يكون فى المستقبل مسيحا بسور من الذهب والفضة فان انتشار المعاملات واشتباك المرافق الاقتصادية بين الأمم سيكون أول باعث على اتقاء مواقف القتال .

فقد ضعفت الخلافات التى تفضى إلى الحرب بمقدار ما عظمت خسائرها . وكلما تقدم الزمن زادت هذه فداحة وتلك ضعفًا .

فالحرب لا ترتكز على شىء من الطبائع البشرية . بل هى تنافرها كل المنافرة . فالرجل لا يخوض غمراتها إلا فرارًا من عار الناس أو عقاب الحكومة أو سخط الله أو دفعًا لخطر على حريته . فهو يقدم على موت مشكوك فيه فرارًا من موت محقق أو ماهو بمنزلة الموت المحقق .

فالشجاعة العسكرية عادة اصطناعية . والناس جبناء بطبيعتهم أى أنهم سواء فى الخوف من الموت حتى الجنود . على أن هؤلاء يتظاهرون أنهم لا يسوون فقط بين الموت والحياة . بل أنهم يعشقون الموت ويبغضون الحياة . فيقول[1] أحدهم متهكما كلما انحنى جندى فى ساحة الوغى من طريق رصاصة توشك أن تثقب صدره : أهى صديق تنحنى له ؟؟ . كأنه ليس فى نفوسهم من كراهة الموت ما يتجشمون من أجل اتقائه احناء الرأس !

---

(١) اعتمدت فى وصف أحوال الجند وهواجس نفوسهم على رسالة صغيرة للكونت تولستوى عنوانها «سفساستيول» وعلى مقالة كتبها مقدمة لكتاب ضابط روسى عن الحرب التى وقعت فى تلك المدينة أحسن فيهما وصف حركات الجنود وأطوارهم ومثل أهوال الحروب ومنكراتها أحسن تمثيل .

قال تولستوى وهو قائد قديم : (إن شجاعة الجنود من جنس شجاعة البغال التى تقف الى جانبهم مشدودة إلى مدافعها . تحاول الإفلات وما تستطيع انفلاتًا) فمهما أوتى المرء من الشجاعة فلا تصدق انه يقتحم الحرب وله مندوحة عن اقتحامها ، كذلك مطمئنة لا تصدق أن إنسانا يواجه الحرب بطبيعة ساكنة لأن الطبيعة البشرية تأبى التعرض للخطر وتنفر من دواعى الهلاك . فالهمجيون يهيجون طبائعهم قبل الحرب إلى حد الجنون بدق الطبول وقرع الدفوف والولولة والصياح والمتمدنون يتشاغلون عنها ويتحاشون ذكر القتلى والإصابات والخسائر وكل ما يخلق فيهم الشعور بحقيقة موقفهم . فيصرفون خواطرهم عن هذه الهواجس بسفساف القول وتوافه الأحاديث فلا تسمع بينهم لحوادث الحرب ذكرًا أو خبرًا كأنم ليس فيها ما يستحق المبالاة بينما تكون الحوادث سمر أخلاط الناس على بعد مئات الفراسخ والأميال . هذا على أن تعرض مئات الألوف من الناس فى صعيد واحد لخطر واحد من شأنه أن يهون الأمر على كل منهم ويشدد عزيمته على اقتحامه .

وأنه ليس أسخف من أن تسمع ضابطا يشكو ويتأفف من حصن تنهمر عليه المقذوفات من كل جانب وتنفجر حوله وعلى جدرانه القنابل بين كل دقيقة ودقيقة . وتسأله فيقول لك . إن الطريق إلى الحصن موحلة فهو يعانى صعوبة فى السير عليها .

قال بعض قواد الألمان حديثا أن الحرب تنمى فى النفس كثيرًا من الصفات الممدوحة وأهمها تضحية النفس فى سبيل الواجب . على أن هذه هى الفضيلة الوحيدة التى لا تنميها الحرب وتنمى ما يناقضها تمامًا .

فكل جندى وكل ضابط نابليون صغير - كما يقول تولستوى - يزهق بقدر ما يمكنه من النفوس وييتم بقدر ما يمكنه من الأطفال ويدمر بقدر ما يمكنه من الدور ليلصق بذراعة شريطًا أو يحلى صدره بنيشان يخطف به أبصار البسطاء .

ومع هذا فمهما كان نصيب رأى ذلك القائد من الصواب فالإنسانية يجب أن لا تعول فى اكتساب هذه الفضائل على مثل هذا البرنامج الصعب . فانه برنامج يكلفها من النفوس والأموال ما هى فى غنى عن احتماله .

فالأمم الآن لا تلجأ إلى الحرب إلاَّ كآخر وسيلة لحل الخلاف . وأين هو الخلاف الذى يربو الضرر فيه على ضرر الحرب المترتبة عليه ؟؟ وهل يبلغ تنازع البقاء بين أمتين فى عصرنا هذا أن تسحق إحداهما الأخرى لتتخلص من مزاحمتها ويخلو الجو لمتاجرها ؟؟

إن أقوى بوادر الخلاف قائمة الآن بين انكلترا وألمانيا وهذا الخلاف لا حقيقة له ، فهو مبنى على توهم كل من الأمتين أنها قد تتعرض لمهاجمة الأخرى فى المستقبل . فاذا سألت : هل مصلحة ألمانيا تقضى عليها بغزو انكلترا أو إحدى مستعمراتها وهل تقضى انكلترا بغزو ألمانيا أو إحدى مستعمراتها وهل الفوز فى المنافسة التجارية يتوقف فى المستقبل على مثل هذه الوسائل العنيفة ؟؟ اجابتك على كل شواهد الأحوال سلبا .

والامم لا تترك اليوم لكل أمة تمام الحرية فى الموازنة بين مقتضيات

الحرب وموانعها بالنسبة لها وحدها فإن أكثر الأمم تشترك فى تحمل خسائرها وأن لم تشترك فى حشد الجنود وجمع الذخائر . فقد بلغ من استحكام الروابط الاقتصادية بينها أن أقل إشاعة بوقوع الحرب فى أقصى المعمورة توقع الارتباك فى السوق المالية فتنخفض الأسعار وتهبط الأسهم وتتزعزع الشركات عدة أيام .

والذى يشاهد من انتشار نفوذ أحزاب الإشتراكيين والعمال وهم الفريق الذى لا مصلحة له فى الحرب ، ذلك كله مما يقوى الأمل فى أن يوم إبطال الحرب أقرب مما ينتظر بكثير .

الاستخدام

موظفنا الصغير يبع حريته ووقته وعمله بخمسة جنيهات فى الشهر . يناط تقدير كفاءته بإرادة غيره وربما أريد منه فوق الكفاءة فى العمل كفاءة أخرى فى الملق والدهان . ينقل من بلد إلى بلد بغير اختياره ويجبر فى كل مرة على ربط صلاته بقوم وقطعها من آخرين ثم تحظر عليه الحكومة اقتناء الأرض والعقار فى الجهة التى يشتغل بها كانها تركت له ما يقتنى به – وهو معرض فى أية ساعة للنقل إلى أية جهة فأين يباح له الاقتناء ؟؟ ونحرم عليه الاشتغال بأمور البلد الذى هو فيه كأنما هى اقتلعته من العالم الخارجى من جذوره . وهو مع ذلك يحسب أنه الرابح فى هذه الصفقة وأنه لا يمكن أن يجد اهنأ من هذه العيشة . يصل إليها بعد أن يتخطى عشرات المزاحمين عليها .

(مباراة فى الخيال ، بين حسن الانسان وحسن البستان) :

الموضوع

اخجلت يا ورد خدود الحسان فاحمر منها ناضر كالدهان
ورعت يا فل عيون المهى فاطرقت تطلب منك الأمان
وزمت الغيد شفاهـا لها لما انجلى ثغرك يا اقحوان
ومالت القامات غضبانة لما انثنى فى روضة غصن بان
وأين شدو الطير فى مزهر من مزهر تشدو عليه القيان

الأسباب

فالورد ما احمرت له وجنة من ريبة حاشا لورد الجنان
والاقحوان الغض لم يتبسم خبثًا ولم يدنس بمين اللسان
وقامة الاغصان لم يثنها كبر ولم يعطف بهن اقتتان
وذاك صداح اهازيجة لا تشترى بالتبر أو بالجمان
لا يحرم الماهن من لحنه ما يسمع العاهل ذو الصولجان

الحكم

ما أحسن الحسن واحسن به من زينة للناس لولا الحسان

العشق

لا أرى العشق إلا نزوة من نزوات الشهوة البهيمية يخصصها فى الإنسان بامرأة – دون سواها – تفاوت الملامح فى اناثه . وتعم فى البهائم لأن تماثل اناثها فى الخلقة لا يدع ما يحتم الانجذاب إلى انثى بعينها من بقية الاناث .

والحب الشريف والحب الخسيس معدنهما واحد وغرضهما واحد

وطبيعتهما واحدة . والذين يتوهمون أنهم إنما يعشقون لمحض التفرج على الجمال الصورى يخدعون أنفسهم فأن من التماثيل المنحوتة ما هو أجمل صورة من أجمل امرأة فى العالم ومع هذا فنحن لا نشغف به ولا نتدله فى حبه . وغاية الفرق بين الحبين الشريف والخسيس أن الأول حب العقلاء الذين يسوءهم تضحية احبائهم لشهواتهم وأن الثانى حب الحمقى الذين لا يفكرون فى غير قضاء الشهوة .

وهو - أى العشق - أحد الشهوات لأنه الشهوة الوحيدة التى إلا تتم الا بتراضى شخصين يحتاج كل منهما إلى الشمائل والأوصاف التى يصبو اليها الآخر ليقترب كل منهما إلى صاحبه من بين ألوف الرجال والنساء . فالخيبة فى العشق - اليأس من الذات التى لم يستحوذ على اعجابنا سواها من كل هذا الملأ والتى لا يهمنا من كل هذا الملأ أن يعجب بنا سواها - هذه الهيبة أو هذا اليأس ليس معناه فقط عدم التمكن من قضاء شهوة . بل معناه أيضًا أن العاشق ناقص فيما يسترعى إليه قلب المعشوق الوحيد الذى لا يبالى أن كان كاملا من هذه الوجهة فى نظر غيره . أى ناقص فيما هو به رجل يستحق إعجاب المرأة التى وقع عليها اختياره من النساء أو فيما هى به امرأة تستحق إعجاب الرجل الذى وقع عليه اختيارها من الرجال . بغض النظر فى جميع ذلك عن فوارق الدرجة والمقام فان هذه مميزات تميز رجلا على رجل أو امرأة على امرأة ولكنها لاتميز ذكرا على ذكر أو أنثى على أنثى .

قطرنا ندى على فسيلة قبر

أعام عييت فى الدنيا جهادا   قضيت وما قضيت بها مرادا
وما ابلاك إلا الهم داء   وشر الداء ما نال الفؤادا

ما كنت اقرأ مناعى الجرائد لأنها بكاء مأجور كبكاء النائحات . لا تصادف فيها عين القارىء إلا ما تصادفه على ألواح الأضرحة عند النحات من إعلام مجردة لا تتبين وراءها وجها ولا تستشف لها معنى .

ما كنت اقرأها من قبل ولكننى فى ذلك اليوم قرأتها . فقد كانت تبدو عليها كباوة الحزن وتعلوها غبرة الكمد . فقرأتها ثم قرأتها فإذا هى تنعى اماما العبد . فأعدت قراءتها فإذا هو بعينه أمام . صاحبى أمام الذى ما تعودت أن اقرأ اسمه فى الصحف إلا مقرونا بملحة من ملحه الرقيقة أو طرفة من طرفه المستظرفة .

أبيت أن أصدق الخبر . والنفس البشرية إذا أبت الموت لأحد . تشأ أن أصدق نعيه . فما أكذب تعلاتك إيتها النفس . كان ذلك لو كان كل أمر إنما يجرى على هواك ووفق مرادك . ولكن ما هذه التعلات منك والأمور كانما تجيىء عمدًا على خلاف ما ترومين وبضد ما تشتهين .

فسقطت من عينى دمعتان ما أردت لهما إرسالا ولم أحاول لهما كتما . دمعتان ليستا بالحارتين فقد أطفأت الأسقام جذوة قلبى وتركته جلدة ميتة ما تحس ولا تألم دمعتان لا تتقد فيهما حرارة اللهف ولكنهما مشبعتان بكل ما فى دموع الأصدقاء على الأصدقاء من مرارة الشجو وغضاضة الأسى .

فذكرت لإمام الأمس المدرج اليوم فى وحشته ، ساعات طيبات ما كنا نحتسبها للزمن ولكنها الآن حسنة من أجمل حسناته لو أنها تعاد . وضحكات مغتصبة فى غفلة الأشجان والأكدار ، وهى الآن حسنة من أجمل حسناته لو أنها تعاد . وضحكات مغتصبة فى غفلة الأشجان والأكدار ، وهى الآن عبرات تشرق بها عيون أصدقائه والعارفين بظرفه وأدبه .

وذكرت له جلساتنا فى قهوة استانبول التى كان يختلى إليها كثيرًا . نأوى إليها فى قيلولة الظهيرة نستنشق هواء الحديقة ونسمع منه أخف من نسماته فكاهة واشفى منه للنفوس نكات يفرج عن الصدور كربها وهو أشد الناس كربا ويزيح عن القلوب غمها وهو افعمهم بالغم قلبا .

لكن الآن ؟

الآن قد مات !

مات قبل أن يداوى الدهر القاسى طعنه من طعناته التى أنحن بها جسده النحيل . مات قبل أن تبتسم الدنيا لفؤاده الكسير مرة بعد ذلك العبوس الطويل . مات فى عنفوان الصبا ومقتل الشباب .

فالوداع أيها الصفى الوفى وداعا أبديا ليس يعقبه سلام . والفراق أيها الصاحب الودود فراقا سرمديا لا مطمع بعده فى لقاء .

الالعاب غير الرياضية

إذا انتشرت الالعاب غير الرياضية كالورق والدومينو والنرد

والشطرنج والسيجة أمثالها كان ذلك دليلا على كثرة البطالة أو نضوب مادة الحديث فى الوسط الذى تنتشر فيه . وكلاهما دليل التأخر .

النقود والسخاء

يهون البذل فى الجهات التى تتعامل بالمقايضة أكثر من الجهات التى تتعامل بالنقود . فان الدرهم قد تقضى به عدة أصناف مما يشرى بقيمته . على حين أن مقدارًا بقيمته من الحنطة أو الأثمار أو الخبز لا يؤدى بعينه فى غير ما يستعمل له عادة . والمتكففون وأبناء السبيل يطوفون على الفلاحين فى أيام الحصاد فينفحونهم بحفان الغلال والحبوب عن طيب نفس ، وقد يسألونهم مليما فلا يسمحون به وهو أقل قيمة مما يعطون .

بقايا الميثولوجى :

فى الميثولوجى القديمة – والحديثة أيضًا – كثير من الأبطال الذين ولدوا من آباء آلهة أو انصاف الهة وأمهات من عذارى البشر .

وفى أيامنا هذه من يعتقد امكان التزاوج بين رجال الأنس ونساء الجن وإن لبعضهم أولادًا من بنات البحر يدعون آباءهم بالمعاشرين .

الفضيلة المأجورة :

إذا كنا نعد المرابى الذى يقرض بسعر خمسين فى الماية رجلا طماعة مغتالا فليس من الزهد ولا من حب الخير أن يقرض الرجل ربه بسعر ألف فى المائة مؤجلة إلى يوم الحساب .

وإذا كان الرجل الذى إنما يمتنع عن السكر والمقامرة خوفا من محاضر البوليس لا نراه ، فى نظرنا رجلا تقيا نزيها . فليس من الاستقامة والفضيلة أن يتركهما الرجل خوفًا من نار الجحيم .

وإذا كنا لا نستعظم من الطفل الصغير أن يحفظ درسه لأنك وعدته بتصويرة أو يتجنب اللعب لأنك أخفته من الغول . فالرجل الكبير الذى يفعل الخير طمعا فى الثواب ويبتعد عن الشر خوفا من العقاب لا يأتى ما يستحق عليه الاطراء والأكبار .

إن كل إنسان يعمل عملا فإنما يترقب من ورائه نفعا لشخصه ولكن يجب أن يكون ذلك النفع نتيجة محتمة تستلزمها طبيعة عمله ويرتبط بها العمل ارتباطا النتيجة بالمقدمة وليس مكافأة أو أجرًا ينتظره من سواه .

المبادىء :

الرجل الذى لا يتقيد بمبادىء عامة يطبق عليها آراء الخاصة ، إما رجل سطحى يجهل سر العلاقة التى تماثل بين الحوادث . لذلك يجهل كيف يحكم عليها حكما عاما يوحدها فى نظره . أو رجل محنك يدرك سر علاقاتها فيحكم على كل عمل على حدته لأنه علم بالاختبار أنه لا يحدث عمل يماثل الآخر من جميع الوجوه . ويغلب أن يكون صاحب المبدأ شخصا نظريا ناقص الاختبار .

الاعتماد على الذات :

إن الذى يكل إلى الناس تقدير قيمته يجعلونه سلعة يتراوح سعرها بتراوحهم بين الحاجة إليها أو الاستغناء عنها .

والطريقة المثلى أن يقوم كل انسان لنفسه قيمتها . فان المرء كما يقول بعضهم يساوى القيمة التى يضعها لنفسه . ذلك خير من أن يطرحها فى المزاد على السنة الناس .

شرف المهنة :

صاحب المهنة يباهى بمهنته كأنه لم يرغب فيها إلا بعد أن تبين مزاياها . وهو يضجر منها كأنه سيق إليها قسرا – وذلك لأنه حبا بنفسه يود لها بما فى وسعه أن يكون أقل الناس تعبا وأكثرهم اعتبارا .

بماذا يشقى الشعراء

أصحاب القرائح الشعرية لا يتمتعون بالحياة الحقيقية كبقية الناس فان حياتهم كلها ذاهبة بين أمل فى المستقبل أو ذكرى للماضى وقل أن تستقر بهم نفوسهم فى الحاضر الراهن لأنه دائما على غير ما يشتهون . والشاعر مكتوب عليه الشقاء مادام مطبوعا على مواهب الشعراء . فهو حاد الخيال تصور له قريحته العالم حافلا باللذة والنعيم مترعا بالصفو ودواعى الهناء مما لا يصدقه الواقع . وتريه الناس على صورة تبرهن المعاشرة على خلافها . وهو لطيف الاحساس دقيق الشعور يوجعه مالا يكاد يحس به غيره وتفعل فى نفسه الوخزة الهينة مالا تفعله الطعنة القاسية فى نفس غيره وهو فاتر الهمة ، ميال بطبيعته الى الدعة والاستسلام محروم من العزيمة الصارمة التى تمكنه من تحقيق أحلامه العديدة وإدراك آماله البعيدة وهذا من أشد ضروب الشقاء كما قال شاعر منهم :

وأتعب خلق الله من بات آملا   وأقصر عما تشتهى النفس نائله

وهو سليم الطوية طيب القلب ينطلى عليه خداع الناس وختلهم وتغره تمويهاتهم فيركن إليهم ثم لا يلبث أن تكشف منهم الأيام ما يخلف ظنه ويخيب ثقته . وهو عجول كالصبى تتحكم فيها إحساساته الوقتية كأنه الصائم بانتظار الأفطار ، سرعان ما تبدو له النعمة بعد ضنك فينغمس فيها غير حاسب للعاقبة حسابًا أو مبق لغده بقية . فاذا ولت أيام الرخاء وجاءت بعدها أيام الشدة كان ذلك أدعى إلى طول حسرته وتنغيص عيشه . وهو سريع التقلب كثير الضجر لا يألف البقاء على حال واحد فلا يصبر على الشظف وهو يعرف الترف ولا يرتاح للفقر وهو يفهم ما هو الغنى - فبغير هذه الأطوار - التى هى من مستلزمات سرعة الخاطر وهو من مستلزمات سليقة الشعر - لا يكون شاعرًا مطبوعًا . وبها لا يكون سعيدًا . إلا أن الطبيعة التى سلطت عليه كل هذا الشقاء لم تحرمه مما يعينه عليه . فكما أن خياله يمنيه باللذة الوهمية كذلك يخفف عنه الألم الواقع وكما أنه شديد الإحساس بالحزن كذلك وهو شديد الإحساس بالسرور . ولئن كان محروما من جمع الأموال وتأثل العقار واقتناء القصور والضياع فان له نوعا من الارتفاق فى كل شيء يراه . قال اديسون فى رسالته عن الخيال :

«ربما أحس مثل هذا الرجل فى مشاهدة المروج والبساتين بارتياح أكبر مما يجده بعض الناس لامتلاكها فكأن ذوقه الدقيق يخوله نوعا من الامتلاك فى كل ما يقع تحت نظره ويجعل أبسط مافى الطبيعة وأبعد مناظرها عن الصقل والتهذيب تشترك فى ترويح نفسه وتطييب خاطره . وكأنه ينظر إلى هذا العالم على نور غير نور الشمس فيكشف

منه غير ما يكشف ذلك النور من ذخائر تحجب نفسها عن أكثر من تراهم الناظرين»

داء الحياة

لقد ثقلت على نفسى حياتى   وأشفق عائدى وشكت أساتى
سئمت فما أريد اليوم إلا   دواء الموت من داء الحياة
إذا كانت حياة المرء سجنا   فشق اللحد باب للنجاة

القول والقائل :

«أنظر إلى ما قيل لا إلى من قال» قاعدة لا يصح إطلاقها فى كل حال فالكلمة تختلف معانيها باختلاف قائليها . فان كلمة مثل قول المعرى مثلا :

تعب كلها الحياة فما أعجب   إلا من راغب فى ازدياد

يؤخذ منها مالا يؤخذ مما تسمعه فى كل حين بين عامة الناس من التذمر من الحياة وتمنى الخلاص منها . فأننا نثق بأن المعرى مارس الأمور الجوهرية فى الحياة ودرس الشئون التى تكون منها عذبة أو مرة ، نكدا أو رغدًا . ولم يسبر منها أولئك العامة إلا ما يقع لهم من الأمور التى لا تكفى للحكم على ماهية الحياة .

الآداب القديمة :

الآداب القديمة مبنية على جهل فاضح بالغرائز الرئيسية فى الإنسان ، فهى تقول له : من نظر إلى إمرأة أجنبية واشتهاها (فقط) فكأنما زنى . من أحب الحياة ورغب فى حطام الدنيا فمحال أن يكوم

صالحا . من عمل حسنة يريد بها الجاه بين الناس فقد انتكس عمله . الحزن لفقد البنين والأصدقاء اثم وكنود الخ ويزيدها جهلا على جهل أنها لا تعدّ هذه الأميال من دواعى فطرته ولكنها تراها وساوس من روح خارجية توسوس له بالشر وتبعده عن الخير .

الاصلاح الاجتماعى :

قد نعرف ما هو الفاسد من نظامات الإجتماع ولكنا لا نعرف ما سيكون صالحًا منها . نقدر أن نهدم بناءً متصدعا ولكن لا نقدر أن نقيم فى موضعه بناء جديدًا : جهد ما يطلب من المصلح الاجتماعى أن ينبه إلى العيوب والأغلاظ التى فى مجتمعنا فنتلافاها أما أولئك المصلحون الذين يخرجون كل يوم للناس بنظامات وشرائع ودساتير ومذاهب يدعونهم إليها بزعم أنها كافلة بصلاح الإجتماع فلا يمكن أن يقال أنهم يتجاوزون حيز التخمين إلى التحقيق . ذلك عمل انفرد به الزمن ولم يشرك فيه أحدًا .

• الضحك :

للضحك عدة أسباب أكثرها يدور حول محور واحد هو الإغتباط بأنفسنا . إغتباطنا أما بما نحسه من كمالها أو بسلامتنا من النقص الذى نكشفه فى سوانا .

ولما كان الإنسان لا يضحك إلا سرورًا برجحانه فهو لا يضحك فى الأحوال التى رجحانة فيها معروف غير مجحود . فالرجل المعروف المكانة ليس يسخر من تصرف الصعلوك الوضيع وإن كان مضحكا فى ذاته . إلا إذا كان يسخر من أهل طبقة ليباهى بطبقته . أو من أهل بلاد ليباهى ببلاده .

وقد يضحك الإنسان من نفسه إذا كان الاستهزاء لا يناله وحده . فلما كان ملوك أوروبا وامبراطرتها وإمراؤها وسواسها وقوادها مجتمعين فى سنة ١٨٥١ فى فينا . وهم واثقون أنهم أحكموا الشبكة على بونابرت، . وقد جلسوا يصلحون ما أفسده ويعيدون ما درسه من معالم أوربا أعلن فى المجلس فى ١١ مارس من تلك السنة أن الرجل قد أفلت من جزيرة ألبا وأنه قد عاد ثانية امبراطورا على فرنسا . فوجموا هنيهة ثم ارتفعت لهم ضحكة طويلة عالية كأن كلا منهم يقول – إن هذا الكروسيكى لم يعبث بى وحدى بل عبث بنا جميعًا .

البكاء :

يبكى الإنسان لغير ما يضحك له . يبكى حين يظهر به النقص والعجز ظهورًا لاسبيل للمنجاة منه . يبكى فى المواضع التى يشعر لديها بالقهر التام ويتحقق له تجرده عن الحول والقوة حيالها . فى تلك المواضع يقول المسلم متمثلا «لا حول ولا قوة إلا بالله» كأنه لايريد أن يكون ضعيفًا إلا أمام الله الذى يتساوى الناس عزيزهم وذليلهم فى الضعف أمام حوله وطوله . والأطفال والمستضعفون أكثر الناس بكاء لأنهم أقلهم اقتدارا . على أن عدم البكاء لا يفيد فى أكثر الأحيان القدرة على دفع المصاب . فان من أصحاب المظاهر والأبهة من يترفع عن البكاء ويتكلف الجلد والسكون حتى فى الفجائع الفادحة كأنهم يأبون الإقرار بالانقهار على كل حال .

الغنى والسعادة :

لا تحسدن غنيا فى تنعمه ... قد يكثر المال مقرونا به الكدر
تصفو العيون إذا قلت مواردها ... والماء عند ازدياد النيل يعتكر

الحرية الشخصية وتقدم الحركة الاقتصادية :

فى البلاد التى تشتبك فيها المصالح وتتوشج الأعمال تجد الناس ينساق بعضهم إلى معاملة بعض قسرا ، وكثيرا ما لا يكون الرجل اختيار فى معامليه أكثر من اختياره فى أقربائه وذويه . فلا ينظر منهم ولا يقدر أن ينظر إلى غير الغرض الذى يقصدهم من قبله . فمن ثم كان كل عامل لا يعنى تجويد عمله ، وليكن بعد ذلك سكيرا أو مقامرًا ، نصرانيًا أو يهوديا ، ملحدا أو مؤمنا ، محافظا أو حرًّا ، فلذلك مالا يسأله عنه أحد . فاحترام الحرية الشخصية – الذى معناه سقوط رقابة البيئة عن الفرد – يكون فى مثل هذه الأقطار على أتمه ، بل يكون من الآداب الاضطرارية التى لا يحض عليها بالرسائل أو المقالات .

القوة والأخلاق :

إذا كانت الحياة صراعا بين القوة والضعف يبقى فيه الظافر ويتوارى المهزوم فالقوة باختلاف معانيها محبوبة إلى كل إنسان والضعف باختلاف معانيه مكروه عند كل إنسان . وكذلك كل ما أفاد القوة فانه محترم محبوب وكل ما أفاد الضعف فانه محتقر مرذول . ومن الأعمال ما يكون مستحسنا ومستقبحًا باختلاف عمل القوة فيه وهذا السطو كان مدعاة الاعجاب فاصبح مدعاة الاحتقار وما تغير فيه إلا أداته فقد كان يستعان له فى العهد الماضى بالشجاعة والاقدام فاصبح اليوم يستعان له بالجبن والنذالة . فلو حللنا اسمح الخلال وأنبل السجايا لما الفيناها إلا أشارات تلمع إلى القوة من قريب

أو بعيد . يتسم الإنسان مضطراً ليحمى بها نفسه ويمكن لها فى الحياة .

فالصبر قوة . لأنه تغلب على الأمر الذى يفرق منه غير الصابر وعدة يتدرع بها الصابر فى الملمات .

والرحمة – وهى هنا ضد القسوة – قوة لأنها لا تكون إلا من الأقوياء على الضعفاء ومن الوادعين على المبتلين .

والكرم قوة . لأنه علامة استغناء الرجل عن الناس بقدر احتياجهم إليه – كما أن بذل علامة القدرة اكتسابه فى كل آن .

والقناعة قوة . لأنها تدل أيضا على استغناء الإنسان بنفسه عن الناس .

والتواضع قوة . كأن التواضع يرى أن قدره أظهر من أن يتكلف اظهاره بنفسه .

والعفة قوة . لان العفيف يزجر نفسه فيصونها عن زجر الغير لها ويراعى حقوق الناس طوعًا فيوقرها عن اكراههم له على مراعاتها .

والحلم قوة . لأن الحلم بالحلم لا يستفزه تطاول الناس كانه أقل من أن يؤثر على مكانته .

والحياة قوة . لأنه ينزل صاحبه منزلة الوقار ويعصمه عن المهانة التى يلقاها أهل الوقاحة والابتذال .

التبصر قوة . لأن المتبصر يسلم بالأمر الذى لابد منه كأنه يفعله مختارا قبل أن يرغم عليه .

والصفح قوة . لأنه عنوان القدرة الدائمة التى لا تمسها إساءات الناس وعدوانهم ، والتى إذا أبقت خصمها اليوم فلانها قادرة على الاقتصاص منه فى أى وقت تشاء .

وسلامة الضمير قوة . لأن عدم الاحتراس من الناس يشير إلى عدم الخوف منهم كأنهم لا يستطيعون أن يصلوا بسوء إلى صاحبه

والعدل قوة . لأنه مساواة بين من يخشى بأسه ويطمع فى مساعدته ، وبين ما يرجى له نفع أو يخشى منه ضرر .

والصدق قوة . لأن الصادق لا يضطر كالكاذب إلى اخفاء الحقيقة رهبة من اناس أو رغبة فيهم . ويقرب من الصدق فى هذا المعنى الوفاء .

والزهد قوة : ولأنه غنى سلبى عما ينكب الناس على طلبه .
والورع قوة لأنه اعتصام بقوة الخالق ترفعا عن قوة المخلوقات .

واحترام الضعف قوة لأن احترام الضعفاء كاحترام الأقوياء يدل على خوف القوة ليس هو الحامل على الاحترام

وجميع هذه الفضائل تشترك فى فضيلة أخرى وهى أنها تستجاب ثقة الناس إلى أربابها وتوقيهم الصغار الذى يتلبس به الذين يشتهرون باضدادها .

على انك إذا حللت الرذيلة من وجهة أخرى لما وجدت إلا أنها اختصار الطريق إلى الغرض تهافتا من النفس وعجزا عن الصبر على. تنكب المحظورات . ووجدت الفضيلة عبارة عن الوصول إلى ذلك

الغرض عن طريق كثيرة العوائق والتعاريج يدل التزامها على الجلد الاضطلاع . فيظهر مما تقدم أن الانسان لا يستطيع أن يفخر بأمر ليس للقوة نصيب منه . ولا يرغب فى الانصاف بوصف إلا إذا كان فيه إظهار لقوته أو مداراة لضعفة وأنه لا يوجد إنسان مهما بلغ من الورع والتجرد ينفر من العزة ويرتاح للضعة . وأنما يختلفون فى فهم معناها كل بما يصلح له .

إلى المجلس الحسبى

أيهم أحق بالحجر ؟ ذلكٌ المسرف الذى يدفع دنانيره أولا فأولا إلى من هو اعرف باستعمالها . أو هذا الشحيح الذى يلتقط من الثروة العامة دراهم يعدهم ثم يحرمها من الانتفاع بها طول حياته .

الغاية واللاغاية

من الناس من يرى أن الثمرة نبتت حلوة ليأكلها الإنسان ومنهم من يرى أن الإنسان أكل الثمرة لأنها حلوة . منهم من يقول أن الإنسان خلق أولا ثم صنع العالم من أجله . ومنهم من يقول أن العالم صنع أولا ثم خلق الإنسان منه . الأولون يعتقدون أن النجوم مصابيح الإنسان والشمس روزنامته والهواء مروحته والبحر صهريجه والأرض سماطه ومناجم باطنها خزانته وهؤلاء يعتقدون أنه من أرض العالم ومائه وهوائه وعناصره تركيب جسم الإنسان — وعلى هذا الخلاف الظاهر يدور الحجاج واللجاج بين أصحاب القصد وأصحاب الاضطرار من قديم الزمان .

الطب والشعوذة

المرض ، ألا قوتل المرض من عدو لدود العداء للانسان .

عرفنا السلاح للسباع وعرفنا كل فتاك مثله لكل عادية مثلها إلا المرض ..

نعم نقول للطب والأطباء . ولكن هؤلاء لا يسعفون إلا فى الانحرفات التى نبالغ بتسميتها أمراضًا . أما فى العلل المتمكنة التى إنما يدعى الطبيب لمثلمها فهؤلاء الذين تقول عنهم – ولست أعمم – يقفون حيارى لا يمدون يدًا إلا إلى قبض الريال بعد الريال إلى أن يكل المريض من العطاء أو يملون من الأخذ وقد يموت أقصرهما عمرًا قبل أن يسأم الآخر .

كنت أظن كل داء من المرض له دواء من الطب . وأن الطبيب إذا فاته علاج الداء فلا أقل من أن يضبط تشخيص أعراضه .

أحوجتنى الضرورة إلى الأطباء وكنت أحسبنى أغنى الناس عنهم فطرقت أبواب عدة عيادات . وكنت إذا دخلت العيادة اطمأنت جوانحى وسرى عنى ما بنفسى فأشعر بين جدرانها كأنى قد لذت بحرم الطب المقدس من أعدائى وما أعدائى إلا الآلام التى تطاردنى فى الليل والنهار .

ثم أخرج منها مزودًا بنصائح فى الطعام ونظام المعيشة لا أحيد عن حرف منها . وفى يدى زجاجة أحسب أن فيها السم القاضى على تلك الالآم . ثم لا تلبث أن تمر بضعة أيام فأرانى كأنى لم أستشر

طبيبًا و لم أتناول دواء . فأدعو إلى طبيب آخر يفحصنى فحص زميله مع تنويعات وزوائد عرضية ولكنها كانت تبعض عندى الرجاء فى طبيب بعد طبيب . ثم أنصرف منه بدواء فى لونه مغاير لدواء الامس ، وآخذ فى طعام غير ذلك الطعام ، ونظام فى المعيشة غير ذلك النظام . ولكن على غير جدوى .

كنت أسمع من الواحد منهم بعد الآخر بهيئة تليق بمن كان يبيع الصحة بل الحياة بالمقدار :
أتريد أن تعرف الحقيقة ؟

إن بك ضعفًا فى المعدة والامعاء يزول بقليل من العلاج

يقول ثان : أن معدتك كأحسن ما يكون ولكن الذى تشكو منه فى الحقيقة هو فقر الدم .

ويقول ثالث : أن جسمك ليس يفتقر إلى نقطة من الدم وأنت لا يحق لك أن تشكو إلا من السوداء .

ويقول رابع : لولا اختلال الكبد وهياج الصفراء لما كنت تتألم من شيء الآن .

ويقول خامس : أن كل ما بك أن كليتيك لا تؤديان وظيفتهما تمام الأداء وليس ماعدا ذلك إلا أثر يزول بزوال ذلك المؤثر البسيط .

يقول سادس : لاتصدق شيئًا مما يقال لك . فكل أعضائك سليمة صحيحة وليس هذا الذى تشعر به إلا من مخلفات ضعف فى الجهاز التنفسى يرجى أن يزول .

وكان هذا الطبيب يقول لى : عليك بالدسم والنشويات وذاك يقول : إياك والدسم والنشويات . أسمع من هذا أن ادمان استعمال الأدوية مؤذ بالجوف وأن الأفضل الامتناع عن تعاطيها . وأسمع من ذلك أن ترك الداء بلا دواء قد يتخلف عنه خطر جسيم . هذا يقول : استلق على ظهرك طول يومك وابتعد عن كل ما ينبه أعضاءك . ويقول لى الآخر : يجب أن تعين لك وقتًا تشغله يوميًا بالفلاحة أو تمشى على قدميك بعد كل ساعتين نصف ساعة .

طبيب ينهى عن الاستنكار من السوائل وطبيب يأمر بأن لا أتناول إلا اللبن وأن لا اتناوله إلا ممزوجا بضعفيه من ماء فيشى . إلى مثل ذلك من الوصايا المتناقضة ولو كانت هذه الوصايا موجهة إلى عشرين شخصا لما كان فى الأمر ما يدعو إلى الحيرة ولكنها موجهه لشخص واحد وهذا الشخص ليس له مع الأسف قدرة الجن على التطور بعدة أشكال فى وقت واحد .

فرأيت أنى لو عملت بجميع تلك الوصايا لما ذقت طعامًا وحرت فى الأمر فلما أن أكون مصابًا بكل تلك الامراض فى آن واحد أو لا أكون مصابًا بواحد منها ووجدت إنى لو تركت نفسى لما خرجت عن تلك التجارب والتخمينات مهما تعسفت فى التوصيف والتشخيص إلا إذا افترضت الداء حالا بعض غير تلك الاعضاء التى ذكروها ولا أعلم أن جسم الإنسان يشمل على غيرها .

وبعد أن أفرغت فى جو فى صيدلية من الأجزاء والعقاقير نقطة بعد نقطة رأيت أن صناعة الصيادلة ليست أنفع بالنسبة إلىّ من صناعة

السقائين وأنه لا توجد صناعة لم يتقنها أربابها كصناعة الأطباء وعلمت أن التحسن البطيء الذى شعرت به لا يمكن أن يدعى علم الطب أى فضل فيه . بل ربما لم أحصل عليه إلا خلسة من الطب والأطباء .

إن هذا الخلط داء مزمن بعلم الطلب – وأقصد منه على الخصوص طب العقاقير – يجب أن يعنى الأطباء بمعالجته قبل أن يجعلوا أجسام المرضى جثثا يجربون بها أصناف الأدوية والعلاجات .

عدم الاكتراث :

عدم الاكتراث لازمه من لوازم النوابغ العبقريين ، فالرجل العبقرى عالمه فى نفسه . له بدوات وأطوار غير التى يألفها الناس ولكنه لا يتخلى عنها . وللناس شعائر وتقاليد يقدسونها.ولكنه لا يلتفت إليها مثله فى ذلك مثل السائح الأوربى أو الأفريقى يهبط الصين ، فإنه ينظر إلى أزياء القوم وأحوالهم بعين الاستغراب وأن كانت مألوفة عند كل فرد غيره فى الصين . ويظل متمسكًا بعاداته وطباعه وأن هزأ منها كل رجل وامرأة من أولئك الاربعمائة مليون الذين يدور عليهم سور تلك البلاد . كأنما العبقرية تجعل الرجل من جنس غير الذى منه بقية البشر .

على أن عدم الاكتراث قد ينقلب إلى هنة من أخس الهنات ، يتخلق بها من لا خلاق لهم من الاراذل والسفلة . اولئك الذين ينزلون أنفسهم فى منزلة لا يمكن أن ينزلهم الناس فى أحط منها أو يخدعون الناس بظواهرهم وباطنهم على خلاف ما يظهرون .

مناقشة مع الاستاذ وجدى :

الأستاذ فريد أفندى وجديِ أكبر داع من دعاة الدين فى مصر يخاطب بلسان العقل فى الدينيات . وبهذا الاعتقاد إلقى إليه هذه المسائل التى رأيت مناقشته فيها لازمة بعد أن تصفحت من دائرته الجزء السابع الذى خصصه للبحث فى اثبات وجود الله — وها هى القيها إليه مسألة بعد أخرى :

«أولا» انتظام العالم لا يصلح أن يتخذ دليلا على حدوثه كما لا يصلح أن يتخذ اختلاله دليلا على قدمه . والإنسان باعتباره زبدة الكائنات سواء فى قول الخلقيين أو النشوئيين لا يعقل أن يظهر فى العالم إلا بعد أن يترتب كل ما دونه فى مراتب الخلق . وسواء حدث هذا النظام بعد اختلال أو كان على هذا الوضع من أزل الآزال فما كان ليأخذ مقره من العالم إلا وهو على درجة من النظام كافلة على الأقل بنشوئه فيه . فمن أعلمه أن العالم الذى يضمه الآن لم يكن فى القدم «كاؤسا» كما تخيله شعراء اليونان وليت شعرى إذا كان قد وجد فى ذلك الكاؤس سائل مثلى ومسئول مثل الأستاذ وجدى وجلسا يتناقشان فى وسط تلك الهيولى كما اناقشه الآن عن آية الخلق فى العالمين فبماذا عساه كان مجيبًا .

«ثانيا» لا يمكننا أن نحكم على الشىء أنه متقن إلا إذا وقفنا على الغاية منه . فنحن نعرف الساعة أنها متقنة إذا علمنا أولا أنها آلة تستعمل فى قياس الوقت ثم علمنا ثانيا انها تؤدى هذا الغرض بالضبط .

نعرف أن المنزل مقسم تقسيما حسنا إذا علمنا أولا أنه محل معد للمأوى . ثم علمنا ثانية أنه صالح تماما لهذا الاستعمال .

قال فلتير فيما نقله عنه الاستاذ فى صفحة ٤٩٩ من هذا الجزء «أنى إذا رأيت ساعة يشير عقربها إلى الأوقات المختلفة استنتج من ذلك بأن لابد من أن يكون عقلا «هكذا» قد رتب لوالب هذه الآلة حتى استطاع العقرب أن يدل على الساعات دلالة حقيقية وكذلك زانى أن تأملت فى آلات الجسم الإنسانى استنتج أن لابد أن يكون عقلا «هكذا» قد نظم أجزاءه وأجهزته وجعله قابلا لأن يغتذى فى الرحم تسعة أشهر متوالية وأنه قد متع باعين لينظر بها وبايد ليتناول بها الخ» .

وأذكر أنى قرأت مثل هذا الكلام لروسو . ولكن روسو عكس المثل فاستدل من تركيب لوالب الساعة على أنه لابد أن تكون وراءها غاية مقصودة . وهو استدلال مردود إذ يجب أن تعلم الغاية أولا ثم يستنتج النظام أو عدم النظام بالنسبة إليها . ولكن دعنا الآن فى كلام فلتير .

ففلتير جزم بأن الساعة صنعة عاقل لأنه تحقق أنها مقصودة لقياس الوقت . فما هى اذن تلك الغاية التى تبين له أنها مقصودة بخلق العالم ؟؟ وهل يعقل أن يحكم على شىء بأنه محكم أى أنه يؤدى الغاية منه تمام الاداء من غير أن نعرف ما هى تلك الغاية ؟؟

ثم لماذا لا نقول مثلا أن الجنين لو لم يستقر فى الرحم مدة الحمل طالما تمتمع بالحياة وأنه لو لم تتولد له أجهزة لما كان حيوانًا . وأن

العين لو لم تكن بهذه الدقة لما أبصرت واليد لو لم تكن بهذا الوضع لما تناولت الخ بدلا من أن نفترض افتراض فلتير :

«ثالثا» الإحكام الشامل والتطابق التام اللذان لابد يشيران إلى القصد مفقودان من الكون . فأين هو ذلك الشيء الذى نراه ولا نود أن يصير أكمل مما هو . فالاجرام السماوية تتصادم فى كل فترة فتتساقط فى الفراغ ، وهذه الأرض التى نحن عليها لا شيء يمنع أن تصطدم الساعة بمذنب أو سيار تائه فى الفضاء فتلحق بالاجرام التى اندثرت من قبلها . ونواميس الطبيعة تثير نكباتها وطوفاناتها وأوبئتهما وحرائقها فتدمر ما عملت فيه نواميس أخرى ملايين السنين ، ولا يتلف ما بدأ فى صنعه الا من يعمل مضطرا فى الحالتين وهم يقولون : أكذلك تكون أعمال المدبر المريد ؟ وهذا الكون ليس فى الحاضر وما كان فى وقت مضى محكما حيث موضع فيه للخلل أو كاملا حتى لا شائبة فيه للنقص ، فهو يتدرج فى الرقى فيسد نقصا قديمًا ويأخذ فى تكمل جديد . ونحن نعلم العوامل التى تدفعه إلى الرقى فكلها منه وإليه . فنظامه هذا البديع قد استفاده بذاته أى بعوامله ونواميسه من اختلاله ذاك . وما هذا النظام بأدل على الاعجاز من ذلك الاختلال لانهما كلاهما أثر لتلك العوامل والنواميس القسرية . وما قال أحد أن الكون انتظم اليوم لأن الله موجود أنه كان مختلا بالأمس لأنه لم يكن موجودا .

«رابعًا» إذا قيل أن الإنسان غاية الوجود كما يفهم من اعتقادهم أن أعمال الإنسان وحدها هى كل ما ينظر إليه من هذا الوجود بعد انقضائه فلماذا لم يرتب هذا العالم بحيث يوافقه كل الموافقة ؟ وإذا

كان الإنسان أحقر من أن يوضع الكون حسب ما يلائمه فلماذا إذن خلقت من أجله كل هذه العوالم التى لا نهاية لها . وكيف لا يكون ذلك الشأن لمن خلق من أجعله العالم الأول والعالم الأخير .

«خامسًا» أن حوادث الكون كلها تطبق على عوامل ونواميس مطردة وأنه حتى الطوارىء التى تغم علينا أسبابها لا تلجئنا إلى استمداد سبب لها من خارج الكون . بل أن تعليلها بعلة طبيعية أقرب دائمًا من تعليلها بعله من وراء الطبيعة .

«سادسا» ليس فى وسعنا أن نقرر أن الكون لا يكون إلا حادثًا ، إلا إذا كنا قد رأينا اكوانًا أخرى مثله ثم أيقنا من حدوثها فنحن نحكم عليه الحدوث بالقياس إلى تلك الأكوان . أما وهذا كوننا لم تر قبله ولابعده . ومنه دون سواه نستمد أحكامنا على المادة والوجود فلماذا لا يكون إلا حادثًا ولماذا لا يكون قديمًا ؟ وللمعترض أن يسأل من يقول : «إن الأكوان لا تقبل القدم من طبعها» كم كونا رأى وفى كم منها تحقق الحدوث ؟ كما له أن يسأل من يقول : «إن المادة لا تصدر عنها الحركات والأعمال» فى أى موضع غير هذا الوجود رأى المادة محرومة من هذه الخواص ؟ فإذا كان لم ير ولن يرى فكأنه يقول أن مادة هذا الوجود لا تصدر عنها الحركات والأعمال .

«سابعا» أننا إذا أردنا أن نسكت عن النظر والاستدلال أمام الغوامض الكونية فلنسكت عنهما بين يدى العالم والرسول على حد سواء . فلا نلحف فى سؤال العالم الحاف المتعنت : كيف انفصلت الأرض عن الشمس ؟ ومتى انفصلت ؟ كأنه كان من شهود ذلك

الحدث البعيد ، ونحن نسكت عما هو أغمض من ذلك وأشد منه أشكالا أمام النبى والرسول .

«ثامنا» أن العدم تصور فاسد من تصورات الإنسان . فلا وجود إلا للوجود ولا حقيقة إلا له . فنحن نرى عدما ولا يمكن أن نرى عدما فمن أين لنا أن نتوهم غير الوجود ؟ فلا مقتضى مطلقا لتصور الوجود كائنا بعد عدم أو صائرًا إلى عدم . كما أنه لا مقتضى لتصور الوجود منفصلا عن الأزليه والأبدية . وما ألم بوهم الإنسان خيال العدم إلا من هذه الاستحالات التى كانت تظهر له فى بادىء عهده تارة كأنها خلق وإنشاء وتارة كأنها تلاش وفناء . وما هى فى الحقيقة إلا انتقال من صورة إلى صورة الوجود ولولا ذلك لما خطر العدم فى عقل ولا ورد على بال . فى ولولاه لما سمعت إنسانا يسأل : «من أين جاء الوجود ولا إلى أين يصير . لأنه لا يتصرر غيره ولا يبدو له سواه» .

«تاسعا» إن الإلهيين هم المطالبون أولا بالإثبات لأنهم هم المدعون ولا يطالب الملحدون به لأنهم منكرون ليس إلا ولا يصح أن يطلب الدليل ممن ينكر قضية لم يقم على إثباتها دليل .

كذلك دحض حجة الخصم لايفيد صحة حجة المدعى . بل كل ما يفيده أن الدعوى لم يقم برهان على بطلانها كما أنه لم يقم برهان على تأييدها .

هذه هى المسائل التى طافت بذهنى وأنا أقلب صفحات الجزء السابع من دائرة معارف القرن العشرين وربما طافت كذلك بأذهان

الكثيرين فوجهتها إلى صاحب الدائرة لعله إذ يدفع هذا الإلتباس يرفع خرطوم الوسواس الخناس عن صدور كثير من الناس .

شح البحر :

أيا بحر لو كنت الكريم كما أدعوا ... قديمًا لألقيت الجواهر للناس
وحليت منها العاطلات على الحلى ... من اللاء لم يسعدن بالتبر والماس
ولم تدخرها كالشحيح لسارق ... تدلى بامراس إليها ونبراس

فاكهة النعام :

تين الصبير وقيت فا ... كهة الاوابد والنعام
يحلو إذا كانت جلا ... ميد الصخور هى الطعام

فنون الجنون :

الجنون فنون . وفنون الجنون كثيرة لمن يريد أن يحصيها لا أقصد جنون السراى الصفراء ولا ذلك الجنون الأحمق الذى يعلم عن نفسه فى الشوارع والأسواق ويستلفت من لا يلتفت إليه بالحجارة والصياح . كلا ! بل اقصد هذا الجنون الخلفى الذى لا يسلم إنسان تحت قبة السماء من شعبة منه . هذا الجنون الذى يقول عنه المثل الانكليزى «لو كان الجنون مرضًا يؤلم لسمعت الصراخ من كل بيت» فما أكثر المجانين الذين يذهبون ويجيئون بغير جوامع فى أيديهم ولا اغلال فى أرجلهم فى هذا البيمارستان العظيم .

الناموس الأخلاق :

الأصل فى الأصل الأخلاق أنه الحالة يتمنى كل إنسان أن يكون

الناس عليها ، حسب ما يبدو له أنه أضمن لعلاقاته معهم . فليست الأصول الأخلاقية بالقواعد التى تقضى المصحة بالتمسك بها . بل كثيرا ما يجيىء الأمر على عكس ذلك ولكنها القواعد التى لو جرى عليها كل إنسان لأصبح الناس كما يزعم واضعوها أسعد حالا فى مجموعهم مما هم الآن .

ولكن أليس هناك فاصل بين المطلوب والحاصل ؟ ألا يجب أن تقدر درجة حكم الإنسان على نفسه فيما يتعلق بمعاملاته مع الناس ؟ أن أولئك الدعاة والوعاظ لا يرون من داع إلى بحث هذه الاعتبارات . يظنون أنه ليس بين المخطىء وبين العصمة إلا أن يعرف خطأه . كأن كل هؤلاء البغاة والأشرار ما كانوا بغاة وأشرارًا إلا لأنهم لم يجدوا من يقول لهم أن ما هم فيه بغيى وشر .

فمن قديم الزمان تكلم هؤلاء الناس عن الصدق والأمانة والفضيلة وقالوا لهم قوموا أصدقوا قوموا استقيموا ولكن حتى الآن لم يوجد ذلك الرجل الصادق الذى لا يكذب . والأمين الذى لا يخون والفاضل الذى لا يعرف ما يؤنبه عليه ضميره – وليس بحيى الضمير من لايسمع صوته مرة – على أنه لو وجد ذلك الرجل بين ظهرانينا لكان كمن يعامل الناس بصك يتقيد به من جانبه ولكنهم هم من جانبهم لا يتقدون به .

وليس أولئك الدعاة والوعاظ وحدهم أصحاب مبادىء أخلاقية بل أن لكل رجل تراه مبدأ أو مبادىء من هذا القبيل . فكل رجل لا تروقه حالة الناس . وليس من رجل تروقه حالتهم ، يتمنى لو

يكونون على غير ماهم عليه . فتسمع منهم ممن يقول : آه لو كان الناس أوفياء ! ليتهم لا يخافون ، ليت قويهم لا يقسو على ضعيفهم . ليتهم لا يبخل أغنياؤهم على فقرائهم : ليتهم لا يتباغضون . إلى غير ذلك من الأمانى التى ربما لم تكن أبعد تحقيقًا من سنن أولئك الأخلاقين .

يقولون ذلك كلما مسهم أذى من تلك النقائض التى ينقمونها من بعضهم . على أن كلا منهم ينتظر حتى يبدأ الناس بالإقلاع عنها ليقتدى بهم . وما من أحد يرضى أن يجعل نفسه مثله لغيره . وما من أحد يضع يديه فى الانشوطة وهو يرى الأيدى كلها ممدودة إليه . فالناس الآن وفى كل زمان يكذبون ويمارون ويتساهلون فى الوجبات . ولا مندوحة لهم عن ذلك ما بقى بينهم هذا التدافع والتجاذب على وسائل الحياة .

الحكومة فى الشرق والغرب :

من المسائل الحرية بالنظر أن شكل الحكومة لم يكتسب شيئا من تعديلاته وأدواره فى الشرق كله . لاقديما كما كان يقع مرارا فى روما واليونان ، ولا حديثا كما وقع فى فرنسا وانكلترا من التجارب المتتابعة وراء تكوين الحكومة الصالحة . ذلك بالرغم من أن الإرتباط والضغط اللذين كان يثيرانهم إلى قلب الحكومات قد نزل اضعافه بالشرقيين . ولكن مع هذا الفرق اليسير - وربما كان فيه كل السبب - أن الاستبداد لا يؤثر هنا على الأحوال المعيشية تأثيره هناك لتيسر الارزاق وقلة ما للقوانين وكيفيات الحكم من المداخلة فى تحصيلها .

وقد يكون هذا الجمود على شكل واحد من اشكال الحكومة ناشئا من انطباع الشرقيين على قلة الاهتمام بالعموميات لتمهد الوسائل الخصوصية . فإذا استولى أحدهم على الملك استقر له الأمر وانقاد له الجميع . وكثيرا ما يتفق أن خادما من خدم البلاط يبسط نفوذه فى المملكة فيغتصب الملك لنفسه ، ويبقى الحاكم المتصرف إلى أن يزحزحه عن مكانه متعصب آخر يأنس من نفسه الصولة والنفوذ . والناس بمعزل عن هذه الانقلابات ، يسلمون بها ولا يشتركون فيها ، فهى - أى حكومة الشرق - لا ترتكز على الشعب فلا تتحول باختلاف مصالحه ولا الشعب يعتمد على اختلاف هيئاتها . فقد أنشأت نفسها بقوة ساعدها ولم ينشئها الشعب كما هو شأن الحكومات فى الغرب . وقد شدت أزرها فى كثير من المواقف بالسلطة الدينية التى رأت من مصلحتها أن تتبادل واياها المعاضدة والتناصر ، فجمدت جمود عقائد الأديان فى وهم الانسان .

فى سالون حلاق

ما بالها تطفر كالغزال	ساحرة بالتيه والجمال
هيفاء من أوانس الأندلس	ذات جبين كالنهار المشمس
قد أسفرت حالية بالنور	فى وجنة ومقلة وثغر
من كل زهر ناضر الرواء	والزهر لا ينضر فى الشتاء
ثم استوت فى مجلس هناكا	تمد للخلائق الشباكا
امامها المرآة فيها يظهر	ماليس فى غير المرائى تنظر
تمثالها فى صفحة البلور	مرتسما بريشة من نور

* * *

وكان يرعاها أريب كيس فقر فى موضعه لا ينبس
وصوب الطرف إلى الرذيلة يرمق تلك المصورة الجميلة
كمن يهاب الشمس فى السماء فيرتضى بقرصها فى الماء
فساءها حتى إلى الطف النظر اهكذا تبخل ربات الخفر
الحسن أن ضن به المليح كالمال إذا يدفنه الشحيح
الزهر إذ يزكو لغير ناشق والبدر إذا يبدو لغير رامق

* * *

فاقبلت تضحك للقرين عن لؤلؤ فى ثغرها مكنون
قالت إلا تنظر للمغرور يحدق فى المرآة كالمسحور
مازال يرنو ، نحوها بالطرف حتى لقد اخجل فيها طبقى
فأومأ القرين للحلاق يبتسم ابتسامة الاشفاق
وقال قل للحاجب الصديق لا يكسر المرآة بالتحديق
من يكثر اللمح لها فى الليل قد يعتريه خبل فى العقل

* * *

فقال «عفوا ياقرين الشمس» ذاك إلا ريب منغصا بالرأس
«مافى المرايا ثم من شيطان يخاف منه المس للانسان
بل أن فيها ملكا مكملا يوحى لنا الحسن كما تنزلا
ملكت منه الذات واستأثرتا ففز بها مغتبطا هنئتا
ودع لنا هذا الخيال مغتما فانه ليس لزوج حرما»[1]

الارتقاء ودلال النساء :

لا يرغب الرجل فى المرأة فى الشعوب المنحطة إلا للعلاقة التى

بين كل ذكر وأنثى . فالمرأة فى تلك الشعوب يهمها أن تكون مرغوبة من هذه الوجهة . والدلال ومنه الخفر والخيلاء وترطيب الكلام والتنخث والزهو باستكمال المحسنات الانثوية من قرائن تلك الرغبة والمحركات لها أيضا . أما حيث تكون للمرأة مزايا تحبب فيها غير هذه المزية كسلامة الذوق الحديث ودقة النظر ومشاركة الرجل فى تدبير شئونه ، فالدلال من هذا النوع لا يحس إلا بقدر ما يكون طبيعيا فى المرأة . فالعربيات والسودانيات أكثر دلالاً من المصريات والسوريات ، والمصريات والسوريات أكثر دلالاً من المتمسويات والايطاليات والفرنسويات ، وهنَّ أكثر دلالا من الألمانيات والأنكليزيات والأروبيات بوجه عام أكثر دلالا من الاميريكيات .

وربما جاءت السوبرمان التى يمنوننا بها مجردة من كل أثر من هذا الدلال .

طمأنينة اليأس :

ماذا أصنع ؟

سؤال إذا ألقاه المصاب على نفسه فعجزت عن الجواب ، هان عليه المصاب . يقوله المحتضر والمقضى عليه بالاعدام ويقوله المفجوع بعظائم الرزايا وفوادح الآلام . يقوله فتطرق نفسه أطراق الرضى والاقتناع . بهذا السؤال «الاسفنكسى» يرقد ساكن الروع جان سيساق غدًا إلى ساحة القتل . بل بهذا السؤال يترقب ذلك الجانى ساعة القضاء عليه كمن يترقب ساعة العرس ، كى يتخلص من وساوس لعل وربما . إلا أن من النفوس طائفة لا تسكت عن هذا

السؤال في حال من الأحوال فتجيب عليه بالصدق والكذب . بالممكن المحال . فالويل لأمثال هذه النفوس الحمقاء! .

الحنان لعلة :

الخال اشد عطفًا من العم لأن الرجل ينافس أخاه بابنائه ولا ينافس أخته بهم . والعمة أشد عطفا من الخالة لأن المرأة تنافس أختها بابنائها ولا تنافس أخاها .

الرأى العام :

لو استطعت أن أتمثل الرأى العام في صورة شخص واحد لرأيته فيلمانيًا غاشمًا . هائل الجثة صعب المراس ضعيف الذاكرة . سريع التقلب . قريب التهيج . سهل القياد . متناقض الافكار يقبل كل ما يقال له من غير تدبر ولا امعان . والساسة والزعماء وجماعة الصحف والاحزاب محتفون بذلك العملاق الغمر يملقونه ويصادونه فلا يكاد يصدقهم بهذه الاذن حتى يكذبهم بتلك ، وهو تارة يهم بالبطش بهم وتارة يضحك لهم ملء شدقيه . ولابد أن يكون كذلك مجموعة أفكار خليط من الناس لا يحتمل أيهم تبعة رأيه شخصيًا .

هواجس ما بين القبور :

كلفنا بالحياة فما الذى أغرانا بحبها . وكرهنا الموت فلماذا كرهناه ؟ «سؤال فيلسوف الفلاسفة وأغبى الأغبياء سيان في العى عنه» . بل أن ذلك الفيلسوف – ولست اهينه – كالحيوان الابكم والجماد الاصم سواء في الصمت أمام هذا السؤال .

سل حجرًا : لماذا يأتلف بذراته ويحتفظ بشكله . سله عن هذين

وهما مبلغ مالديه من حياة ، ثم سل من تشاء من جهابذة العلم وأساطين المعرفة : علام آثر الحياة وكيف بدا له أن يتمسك بهذا البقاء ؟! أنك لا تسمع منه صوتا اوضح من سكوت ذلك الجماد .

ألا اخلق بهذا الذى يدعونه تنازعًا على البقاء أن يدعى سباقًا إلى الفناء . سباقا من العفاء مبتدأه ومنتهاه إلى العفاء . نحن كلنا فى ذلك المضمار متلاحقون . السباق منا كالمسبوق والأول والآخر سواء .

فهذا المالك المطاع . الذى لا يفرض على عباده أكثر من الإيمان إلى الغبراء برهاناً على التذلل أمام عزته . والتصاغر لدى عظمته . دعه اليوم عزة السلطان وابهة المقام . ثم عد إليه بعد أيام . إلا ينتثر على تلك الغبرا ترابًا تمشى عليه الدواب وتطأ فوقه الأنعام ؟ .

وهذا الألمعى اللبيب : الذى تتلألأ كلماته فى ظلمة الجهل تلألأ النور فى حلك الليل . تنافس يتيمات الدرر بأقواله تنزيهًا لها عن لفظ هذا الأنام وتحاكى بنفائس الأعلاق معانيه اغلاء لها عن سائر الكلام أنظره إلى أيام .. فما أقرب معدن ذلك الجوهر إلى معدن هذا الرغام عند كيمياء الحمام .

وهذا التياه بجماله . الفتان بدلاله . الذى تتهافت الابصار على لمحة إليه . وتتلهب الشفاة إلى قلبه منه – امهله أيضًا إلى أيام .. ثم انظر أين منه تحت الثرى لحاظه الساحرة . وطلعته الباهرة ووجنته الناضرة ومراشفة العذبة الطاهرة . ألا ترى أحسن محاسنه غبارًا ينفض عن الأحذية وتصان عنه الأقدام ؟

وذاك الكمى المغوار الذى حرم على الأسود لحمه . وسمم فى ملاغم النمور دمه . مابالُه يسرح الدود منه فى مكامن الشدة والعرام . وتتمكن الهوام من بدنه حيث لا يبلغ لانصل ولا حسام ؟

فما هذه الحياة لا كانت الحياة! حبينا على الكره منه . ونعيش على الكره منه . وننسل فنهب أبناءنا الحياة على الكره منا ونحبها ونحن على ذلك مكرهون .

ما هذه الحياة لا كانت الحياة ؟ كلام يعجم على عقولنا ويرن صداه فى أعماق ضمائرنا والموت من فوق منابر النعوش ينادينا ، بلسان يسمعه الاعجمى كالعربى ، والاصم كالسميع ، والبعيد كالقريب قائلا : «أيها الناس إن حياتكم هذه إلا احتضار طويل . تعالجون له كلما استطعتم إطالة ومدا . ولان تعجلوه اليوم قبل غدو الساعة قبل الساعة التى بعدها أحرى بكم لو كنتم تعقلون» .

نقض اللغات :

كم من كلمات على السنة الناس بلا معنى وكم من معان فى أفكارهم بلا كلمات .

اقتراح

لست أدرى لماذا لا تفتح حديقة الحيوانات أبوابها سحرًا فى أيام من فصل الصيف والربيع . فيشاهد الزائر الطبيعة تفرك جفنيها من النعاس وهى فى ثياب النوم . ويرى كيف تنهض من فراشها بين جمادها ونباتها وحيوانها . ويسمع ذلك اللحن المؤلف من زئير السباع

وصياح الدواب وتغريد الطيور وزقاء العصافير وعزيف الصبا وحفيف الأشجار . أيظن مدير الحديقة أنه يحبو زواره بمشهد أبدع هذا فى النهار ؟؟

غشاء المدينة :

أن هذه الظواهر المدنية ليست عميقة الأثر فى نفس الإنسان فإن البواعث التى تخرجه عن هذا الطور السطحى مثل الغضب الشديد والجنون والدفاع عن الحياة تعيده إلى استعمال أبشع وسائل العراك الوحشى كالنهش والعض والتخديش بالأظافر لاسيما فى الصغار والنساء . والوقائع متعددة عن المجانين الذين أكلوا جوارح الأحياء ، والمقتولين الذين أنشبوا أنيابهم فى أجسام قاتليهم وقضموا من أعضائهم ما وصل إلى افواههم ، طمعًا فى الخلاص .

وحش فى غير لقاب :

الإنسان أشد الحيوان ضراوة . يفترس من البر والبحر والهواء وما هو بمضطر كاضطرار الوحوش إذ ترد عنها قوارص السغب ولكن ليتلذذ ويتفكه بتنوع الألوان واختلاف الطعام وكما أن السبع قد يغتال فريسته من أجل نهشة من اللحم . كذلك انسانا قد يسطو على شرف أخيه وطمأنينته فيسلبها منه من أجل لذة فارغة لا يضيره الاستغناء عنها . فالوحشية ليست فى البرثن والناب أكثر منها فى الشوكة والسكين . وليست هى فى الفتك والاغتيال باقبح منها فى الافك والاحتيال .

وما فى الغول والسعلاة طبع   وهذا المرء من شرواه خال
وكم فى الناس أن تنظر إليهم   طبائع ما تراها فى السالى

تربيتنا الدستورية :

إلى الآن يخيفون الأطفال فى الأرياف البعيدة بالعسكرى يخافون من كل لابس الطربوش كخوفهم من العفاريت والعيلان .

التنافس سلم الرقى :

يضيق مجال التنافس فى الاقطار الزراعية البحتة التى لا تعمل فيها الصناعة فتبطىء حركة التقدم . لأن المجانسة الطبيعية فى نتاج الزراعة قد أوقفت التحسينات الصناعية عند حد محدود . ولذلك بقى فلاح اليوم نموذجًا لا يفوته شيء من فلاح طيبة وممفيس . فالاكواخ الطينية والمحراث الخشبى وسراج الزيت وأثواب الصوف بلونه الطبيعى على جلود الغنم . ومنسوج الكتان الغليظ والخبز الاسمر والسمك المملح والجبن والبصل والكراث لا تزال على حالها فى عهد بناة الأهرام . وستبقى كذلك إلى أن تنشأ لنا صناعة وطنية نزاحم بها فى سوق الصناعات . هنا لك نضع أقدامنا على قاعدة ثابتة مستقرة ونأخذ فى الرقى المتواصل المطرد .

ياليل :

شمل الظلام أعالى الأكام   والنور غادر طاوى الأعلام
وطغى على الأكوان بحر طام

---

(١) من نظم المؤلف .

نامت عوالمها ورنقها الكرى والنجم نام ما فوق الثرى
والخلق بين مهموم ونيام
والليل أرحب ما يتاح لنائم ضاقت مذاهبة بهذا العالم
وطوى على كشح من الايام
ياليل عفيت الفوارق والمدى سويت ما بين الملوك ومن غدا
فى حكمهم كسوائم الأنعام
ياليل أنسيت الحزين مصابه وسللت من صدر العليل عذابه
وحبوته بروائع الأحلام
كم فاز فيك المعتفون بما ارتضوا وأذقتهم طيب الرجا وقد قضوا
عهد الرجاء وما حظوا بمرام
وجمعت أهل العشق لم يتجمعوا فى غفلة ممن يلوم ويمنع
بالروح دون تواصل الأجسام
لا يكتمون من الحياة ودادهم أو يعرضون وقد أذاب فؤادهم
مثل الغضى من لوعة وهيام
أحييت من أردى الحمام وقتلا وبعثتهم من بعد أن صاروا إلى
رمم بوالى فى الثرى وعظام
ياليل أنت أبر مايدعو الورى رفرف على أهل المدائن والقرى
وأبسط ظلالك فوقهم بسلام
آليت أظلم من ظلامك حالكا نور يضىء إلى الشرور مسالكا
ويرى العيون خوافى الآثام
وأعف من إنسان سوء يفسد شيطان جن فى ظلامك أسود
ما قط فارق عالم الأوهام

يا ليل فاحلل فى العوالم سرمدا　　إنى لا فرق للنهار إذا بدا
أشباح خلق فى النهار لئام

السعادة فى وهم الناس :

يعتقد بعضهم أن السعادة أن تتوفر لدى الإنسان جميع مبتغياته حتى لا تعود له بغية فى الحياة . وأن التعاسة بأن يصغر الإنسان من جميع حاجاته حتى لا يكون شيء من مستلزمات الحياة إلا وهو محتاج إليه . على أنى لا أحسب هذه التعيس أحق بالانتحار من ذلك السعيد .

احترام الضعف :

تغلب آداب احترام الشيوخ والنساء فى الشعوب التى من دأبها أو كان من دأبها الغزو وشن الغارات - وراقب ذلك فى الأتراك - كأنهم يأنفون من إظهار البأس على من لا ينتظر أن يفاخرهم ببأسه .

الانخفاض أساس الرفعة :

أعلا المراتب ما أقيم بناؤه　　فوق النقائض من بنى الإنسان
وإذا بدا لك أن تشيد عاليا　　فاجعل أساسك غائر الأركان
يشقى المماكس والمخاتل والأولى　　سادوا الخلائق من ذوى التيجان
لولا الغرارة فى الأنام وما بهم　　من ذلة مرذولة وهوان

فضل الفقراء على مدينة الانسان :

أكثر الإنقلابات العظيمة تمت على أيدى الفقراء لأنهم الفئة التى ترغب دائمًا فى تبديل ما هى عليه .

الحجاب – خير للرجل الذى يخشى أن تصادفه امرأة فى الطريق فيفتن بها . أن يرجع إلى نفسه فيقوم طباعها ويلطف من شبقها . ذلك خير له وللعالم من أن يحكم بالسجن المؤبد على نساء العالم كله .

والمصلح الذى يتذرع بفصل الجنسين إلى منع الأضرار التى تنجم عن اختلاطهما . كالحكومة التى توكل بكل فرد حارسًا أو تحبس الناس جميعًا لتمنعهم من ارتكاب الجرائم . كلاهما يضيع الغاية فى سبيل الواسطة .

أين موضع العجب :

فى جزيرة منعزلة من جزر النيل رجل إنكليزى وامرأته يقضيان الشتاء فى تلك الجزيرة ثم يبرحانها عند ظهور الصيف . وقد وضعا فى خدمتهما نحو الأربعين خادمًا بين رجل وامرأة فكانوا يقصرون فى تأدية أعمالهم غالبًا . فتصيح بهم السيدة غضبى «عجبًا أربعون شخصا يعجزون عن خدمة اثنين!»

نعم عجيب أن ينفق رجل وامرأة على مالا يكاد يفى بتهيئة معدات أكلهما وسكناهما فى المشتى . ما يكفى للانفاق على أربعين عائلة فى كافة لوازمها!»

آداب المجاملة :

الصراحة – أى إظهار شعور النفس فى حقيقته – خلق فطرى فى الإنسان . ولكن الرياء والمواربة والنفاق والمجاملة مستحدثات

متصنعة أوجدها تداول الحاجة بين الناس . ففى القرى حيث تقتصر حاجة كل إنسان على ساعده ترى الغلاظة والخشونة فى الكلام وتراهم أبعد ما يكون فى حديثهم عن الكياسة والتزويق وكذلك بين النساء الجاهلات بالحاجات المعنوية فى العشرة والمسامرة وتبادل العواطف . فان الصراحة عندهن على اتمها لأنه قل أن توجد بينهن امرأة تحتاج فى مؤنتها إلى امرأة أخرى . لاعتمادهن جميعًا من هذه الوجهة على الرجال .

ومتى ازدحمت الأعمال بتقدم العمران واعتمد كل عامل فى عمله على ذاته ، قلت كذلك المجاملات الفارغة واقتصر الناس من الكلام على الضرورى المفيد ونبذوا اللغو والهذر .

وربما كانت هذه الجفوة التى عرف بها العنصر السكسونى فى ألمانيا وأميركا وانكلترا من لزائم الاعتماد على النفس واستقلال الفكر وهما الخلقان اللذان امتاز بها أبناء هذا العنصر بين عناصر البشر كما يمكن أن نرجع بهذه المجاملة المستسمجة بيننا إلى عدم استقلالنا والتعويل على غيرنا قبل أنفسنا فى قضاء حوائجنا .

محك المعجزات :

للفيلسوف الانكليزى دافيد هيوم ميزان دقيق يزن به المعجزات . قال فى بعض فصوله ما معناه : إذا أخبرك رجل عن معجزة فانظر إن كان تكذيب ذلك الرجل مستحيلا أبعد من استحالة وقوع تلك المعجزة فصدقة»

فمثلا إذا جاءك رجل وقال أنه رأى الشمس تطلع من الغرب بعد نصف الليل . فاذا كان وقوع ذلك الأمر الخارق أقرب إلى الاحتمال من كذب رجل أو مائة رجل مثله أو ألف أو مليون فصدق المعجزة وإلا فاقطع فانها ملفقة .

حقيقة الشعور بجمال التصوير :

فى استحساننا للصور[1] شيء من الاعجاب الخفى باتقان المصور . فيتفاوت اعجاب الناظر على حسب الدرجة التى يقدرها للاتقان فى نظره . فصاحب الذوق الساذج يكتفى بتخطيط «كروكى» عن مجمل الشكل المرسوم. فلا يطالب الرسام إذا رسم رجلا بأكثر من أن يأتى به كاملا لا ينقص عضوًا من أعضائه . فيبحث عن الرأس والعين والأنف والاذن الخ هل لها علامة ظاهرة فى الرسم أم لا ثم لا يعنى بمضاهاتها على الاصل . يطلب منه رجلا لا يلتبس عليه بالقرد أو جملا لا يلتبس بالزرافة .

ذلك اننا تعودنا ان نعجب دائما بالصانع فى صنعته على قدر ما استلزمته من الحذق والقدرة . وعلى قدر مالدينا من ادراك ذلك الحذق وتلك القدرة . فنحن تروقنا صورة اليد اكثر من الصورة الشمسية وان كانت هذه فى الواقع اضبط من الاولى وادق منها انطباقا

---

(١) عنيت بالصور هنا . الصور بجردة عما تنقله من احساس اصحابها لان هذا فى الحقيقة غير ذات التصوير . وقدمت الاتقان فى العمل على مغزاه لانه الامر المطلوب اولا وبدونه لا يعد العمل تامًا . فالاخرس الذى يفهمنا آلامه باشاراته لا نعده خطيبًا مؤثرًا . وكذلك المصور الذى نفهم مغزى صورته بالرغم من خلل تصويره لا نعدة مصورًا .

على الأصل . إلا أن استخراجها ليس فيه ما يشبع حاسة الغرابة . لانه لا يشف عن البراعة التى يشف عنها استخراج الاولى . ولو كان للإعجاب بالصور سبب غير هذا السبب لكانت الثانية أُولى باعجابنا .

اعمار الموتى :

قلت هذه الأبيات على قبر صديق زرته بعد عام وقد مات فى التاسعة عشرة .

قد مرَّ عام وانتا ... من القبور حسبتا
اليوم عشرين عامًا ... تحت التراب بلغتا
سيان يوم وجيل ... فى عمر من بات ميتا

بنات اوربا على الإبل[1]

قل للحسان على المطى رواكضًا ... رفقًا بأعناق المطى قليلا
لا يرتكضن فهن فى اقصى المدى ... ادنى لاعماق النفوس مثولا
حسب الحسان من القلوب رواقلا ... اما خفقن وحسبهن ذميلا

تقسيم التركات :

إذا مات رجل عن مائة ألف جنيه وخلف وراءه ابنًا . فكيف يحق لهذا الابن الاستيلاء على جميع هذا المبلغ ؟ وبأى مسوغ يستحل ذلك الولد هذا المقدار من ثروة الأمة ؟

نعم أن على الوالد ان يربى ولده . وله أيضا ان يعينه على انشاء

---

(١) قليت فى سباق لسيدات على الجمال .

مستقبل له فى الحياة . فليكن الامر كذلك فليس فى هذا نزاع . فإذا ما مات ذلك الأب فلتقم الحكومة مقامه وتتولى تربية ولده وتمده متى حان له أن يعمل لنفسه بما يبدأ به عملا من الأعمال . ولتتركه بعد ذلك يلاقى ما يستحقه بجدارته من نجاح أو فشل وتنفق الباقى فى تحسين حال المجموع بما لا يمكن أن يأتى على يد فرد من الأفراد .

محادثة مع أخى الصغير . أمام البنك المصرى :

قـــرأ الغـــلام على لوحـــة المصـــرف الكـــبير «ا ل ب ن ك. ا ل م ص ر ى» فصاح بى : أهذا محل البنك ؟؟

قلت : نعم ، أنه هو محله

قال : أين هو إذن ؟؟

قلت : هذا البيت الذى تراه أمامك .

قال : لقد كنت أسمع الناس يقولون – أخذت من البنك – البنك أعطانى – البنك يطلب من فلان – فاحسب أنه رجل كبير كثير الأموال – يجلس فى محله وينفح الناس بالنقود كما يطلبون .

قلت : أنه لكذلك ، رجل أو رجال كبيرون . لا بالجسم الضخم ولا بالشعر الأبيض ولكن بالذهب . وهم كما حسبت . ينفحون من تسمعهم من التجار وأصحاب المزارع والعقار بالنقود إلا أنهم لا يطيقون كلفة الجلوس ومد اليد بالفلوس ، فهم ينامون هناك على أسرتهم ويبعثون جنيهاتهم تدور وتنحدر من يد إلى يد ومن كيس إلى كيس . ثم تعود أيديهم وأكياسهم فى آخر الدورة أضعافاً مضاعفة .

قال : وإنى أراهم يزنون الجنيهات والريالات فى الموازين فبكم يا ترى يبيعون الأقة ؟؟

قلت : إنهم يبيعون الدرهم بدرهمين .

قال : وهؤلاء الصيارفة والبوابون الذين يزنونها ويصفونها ويحملونها . ألا أحسبهم أسعد العمال حالا وأكثرهم مرتبات وأجوراً .

قلت : كلا ! بل هم فى ذلك عمال كبقية العمال .

قال : فكم أجرة هذا البواب .

قلت : كأجرة ذلك البواب .

قال : وهذا العامل .

قلت : كذلك العامل .

قال : عجبًا! أعامل البنك وهو لا يقلب يديه إلا فى الذهب والفضة يأخذه عامل الأوراق والمحابر والأقلام ؟؟

قلت : أى نعم : كذلك قضى الناس : أن يكون أقلهم حظًا من المال أكثرهم اشتغالا فيه .

قال : إننا نحن الأطفال بمثل ذلك فى ألعابنا .

قلت : ولكننا نحن الرجال ذوى الشوارب واللحى نرضاه فى شرائعنا وأعمالنا فماذا تقول ؟؟

فبهت الغلام وألقى بكرته أمامه ثم عدا فى أثرها !! .

أين الحقيقة :

أيــن الحقيقــة ؟؟ لاحقيـــ	ــقة كل ما زعموا كلام
النــاس غـــرقى فى الهوى	لم ينــج غــر أو امـــام
إن الحقيقـــــة غـــــادة	كالغيــد يضمرهــا اللثــام
كل يهيم بها فـــــــان	لاحت لهم صدوا وهامـوا
كم أشرق الحق الصـــــر	اح فاعرضت عنـه الأنـام
والنـاس لـو تـدرى خفـا	فيش يـروق لها الظـلام
لاحــــــق إلا أنـــــه	لاحــق فى الدنيـا يـــرام

ولما نشرت هذه الأبيات فى الجريدة نشر كاتب فى العدد ٣٣٦٠ من اللواء مقالا افتتاحيًا تحت عنوان «يرون الحقيقة ويمارون فيها» قال منه «إن الذين ينحرفون عن طريق الحقيقة لم يضلوه ولو شاؤوا لاستقاموا فيه . ولكنهم لا يشاؤون فالحيلة فيهم قليلة .

مثلهم مثل من يجعل بينك وبين الشمس يده إذا تعالت فى السماء ليحجب عنك نورها وهو يدرى بأنه لا يحتجب فالويل لهم من أنفسهم والويل لطلاب الحقيقة منهم .

نعم أن الحقيقة لا تدرك بين الذين أشربوا فى نفوسهم هذه الطباع ولكنها غير مجهولة . ولا خافية . وهل يخفى النور على بصير وقد ضمن مقالته أبياتًا بهذا المعنى .

فقد ظن الكاتب إنى أنكرت الحقيقة مطلقًا . وليس هذا مرادى ، فالحقائق من صنف (٢ × ٢ = ٤) كثيرة لا تحصر ولا تنكر . ولكن

الحقيقة التى عنيتها ليست من طراز هذه الحقائق . فهى الحقيقة الكبرى . الحقيقة الشاملة التى ينضوى تحتها كل ماعداها من حقائق ، فمن هو ذاك الذى يحسب الكاتب أنه يعرف هذه الحقيقة ويمارى فيها ؟ تلك أكبر من أن يعرفها أحد فيكتمها . بل تلك أسطع من أن يقابلها بصر إنسان .

خلود الفنون :

تساوى الآن أرباب القرائح والفنون . فلم يعد الشاعر ينفرد بتخليد ثمرات قريحته عن زميليه المصور والمغنى – فبواسطة التصوير الشمسى الملون أصبحت الصورة تنقل من قرن إلى قرن من غير أن يذهب تقادم العهد برونقها . وبالفونوغراف والأنواط الموسيقية أصبح فى الإمكان حفظ أصوات المغنيين وألحان الموسيقين مئات السنين بعد أن كانت تخرج من بين شفاههم فيلاشيها الهواء .

نقد الكتب :

يحسن بالقارىء أن يعيد تصفح الكتب التى يقرأها مرة فى كل ثلاث سنين على الأكثر . فإنه يضاعف انتفاعه بها ولاتفوته طلاوة الجديد فانها تتغير فى نظره حتى لقد يظهر له كأنه يقرأها للمرة الأولى فيرى فى معانيها ودقائقها ما كان لا ينتبه إليه من قبل كما يبدو له من مآخذها وأغلاطها ما كان يخفى عليه . وربما تغير حكمة عنها إلى نقيضه فيروقه ما كان يرفضه ويرفض ما كان يروقه مترقيًا مع ارتقاء معلوماته .

وباعادة تلاوة الكتاب فى ظروف مختلفة بتجرد القارىء عن تأثير الظروف عليه فى قراءته ويتخلص إلى المعنى المقصود .

اسحار أيار

نشرت هذه الأرجوزة فى العدد ٩٧٦ من الجريدة الصادرة فى يوم ٢٦ مايو سنة ١٩١٠ :

قد أقبل الربيع   بنشره يضوع
ففاحت الزهور   وصاحت الطيور
حديثها تلحين   ولحنها شجون
سجية فطرية   من قدرة سرية
ماركبت مزمارًا   أو هذبت أوتارًا

* * *

الورد فى البستان   يميل بالأغصان
يسطو بلون الأفق   عند احمرار الشفق
كأنه الخدود   تهفو بها القدود

* * *

والفل فى الرياض   كالحدق المراض
يرنو بلحظ فاتر   لكل وجه زائر
مختلف الأوراق   مزدوج الطباق
كنجمة الصباح   تهم بالرواح
يامن جفاه الوسن   وحالفته المحن

أزرت به العيـون ومـلـه القريـن
الفـل طـرف أحـور لكـل وجـه ينظـر
لا يغـمض الـدلال منـه ولا الملال
يرمـز للعفـاف بلونـه الشفـاف

* * *

والنـرجس الجميـل أقصـده النحـول
ما بالـه قـد أطرقـا لا يستـقيم مطلقـا
كالتابـع المطيـع فى حضـرة المتبـوع
أم أبصـر الزهـورا فارتـد مستطيـرًا
وعـاذ بالـرحمن مـن فتنـة الحسـان
كالنـاسك المعتـزل عن دهره فى شغل
ماجال قـط بالبصـر فى حسن ربات الخفر
قـد أنكـر الجمـالا يحسبـه ضـلالا
كـأن مـن سـواه لـيس هـو الإلـه

* * *

وفـاح مثـل المنـدل من جـانب القرنفـل
ياسيـد البهار وحليـة الأبكـار
أدمـيت فى التقليـد أنيمـلات الغيـد
طيات ثـوب الغانيـة ماعـنك إلا راويـة
مسنـن الحوافى فى ورق لطـاف
تخالها فى الشكـل مثـل ثنابـا الطفـل

ضاحكة للأم   ناغته بعد ضم

* * *

ودارت الأقاحى   مبيضة النواحى
كأنها الملاح   دارت عليها الراح
فاهتزت الخصور   وافترت الثغور
يا ألف ثغر يبسم   جذلانه لا تسأم
الشهد منها يرشف   والطيب عنها يعرف
كيف يرى الحزين   أو يعبس الجبين
فى محضر صبوح   بوجهك المليح

* * *

وأشرق النيلوفر[1]   كالبدر حين يسفر
يحنو إلى ذكاء   فى الصبح والمساء
كالراهب الحبيس   فى هيكل المجوس
أتلفه القيام   والنسك والصيام
فاصفر كالمفؤد   من خشية المعبود

* * *

وانتشر المنثور   كأنه الذرور
طرازه مؤتلف   ووشية مختلف
كأنه قوس قزح   أو خيط نور فى قدح

---

(١) عباد الشمس .

أو لعب الأزاهر في موسم المساخر
بالورق الملون من كل صبغ متقن
فالأحمر الخضيب والأصفر المشوب
والواضح المحمر كالثغر إذ يفتر
شفاهة لا تطبق ياحسنها لو تنطق

* * *

والنيل يجرى ساكنًا كالشيخ يسرى واهنًا
يحدث النجوما حديثه القديما
قد أقبلت عليه وحملقت إليه
وراق للنسيم ما راق للنجوم
فأمسك الأنفاسا وأنصت اختلاسًا

* * *

والبدر في سماء يسبح في السناء
مجرد الأهاب في ذلك العباب
ولاح نجم هالى مشمر الأذيال
يعمل في الديجور كالخنجر المشهور
فانقض زنجى الدجى في دمه مضرجا
وأقبل النهار يحفه الأكبار

* * *

يأيها النيام قد أدبر الظلام
الماء والهواء والأرض السماء

والعشب والنوار والطير والأشجار
والحوت فى البحار والوحش فى القفار
تنهض للبكور قبل انبثاق النور
فما لهذا النائم من عنصر ابن آدم
قد هالف الطبيعة فى هذه الشريعة
مذ جعل القنديلا عن شمسه بديلا

* * *

لو أنصف الزمان وأسعف الامكان
ما أشرق النهار أو دارت الأدوار
إلا على الربيع وزهره البديع

الانعطاف :

السر كل انعطاف استحضار العاطف حال المعطوف عليه استحضارًا تتنبه معه فى النفس حاستها فى مثل تلك الحال .

فالمرأة أعطف على المرأة من الرجل لأنها أخبر بخبايا نفسها واختلاجات قلبها .

والمرزو يرثى للمرزوء أكثر من الخلى لأنه لأقرب منه إلى فهم حاله والاستشعار برزئه .

وسرعة الخاطر ملازمة لشدة التأثر لأن سريع الخاطر أسرع من غيره إلى لحظ المشابهات البعيدة بين شكايات الناس وشكايته . ومن أهل هذا الخاطر السريع من تبلغ به قوة الاستحضار أن يستحضر

أمرًا مضى فيضحك أو يبكى كما لو كان الأمر قد وقع له فعلا فى ذلك الحين . وأصحاب هذا المزاج هم الذين ينسون أنفسهم فى غمار الناس ويتسلبون عن ذواتهم فى وسط الجماعة ، فيغلب عليهم ضعف الإرادة لأنهم لا يملكون اطمأنانهم الداخلى أمام المؤثرات المتناقضة . ولا تأتى أعمال هؤلاء إلا إذا كانوا فيها ملاحظين أو منفذين لا مدبرين ولا مديرين . أما الأعمال التى تحتاج إلى حضور الذهن واستقلال الحكم وعدم الانقياد إلى مؤثرات الوسط . كالقضاء والسياسة وإدارة الأشغال فهم لا يبرزون فيها بتاتًا .

والشفقة عند القبائل المتبربرة مرادفة تقريبًا لمعنى الجبن لأنها بهذه المثابة عبارة عن خوف على النفس من طريق الخوف على الغير وكذلك الغلاظة عندهم مرادفه معنى البأس والصلابة .

هذا باعث الرحمة ، وهذا أيضا باعث الضمير

فالرحمة ليست إذن حيلة اخترعها الضعفاء لمصلحتهم كما افترض النيتشيون . ولكنها طبيعة من طبائع الإنسان ، والفرق فيها بينه وبين الحيوان فرق بين دماغ ودماغ . فذهن الانسان لارتقاء تركيبه يأخذ الشبيه بالشبيه وذلك ما يصل إليه الحيوان .

شعر حافظ :

يعجبنى من حافظ جلاله فى شعره . يعجبنى منه ذاك الجلال وإن كنت أعتقد أن الجلال الظاهر لا يتطلب من شعرائه سموًا فى المشاعر أو أفضلية لها على شعراء الجمال . فعندى أن إدراك الجمال ينبغى

له تهذيب فى النفس ودقة فى الذوق لا تكتسبان إلا مع العلم ومعانية ثمرات الفنون ، ذلك إلى استقامة الفطرة وسلامة الطبع . وليس كذلك الجلال فانه لقوته الضاغطة على الحواس يضطر النفس إلى الشعور به قسرًا ما دامت على استعداد له ، ويندر أن تعرى نفس عن استعداد للشعور بالجلال .

وتعجبنى منه موسيقيته فى شعره يوقع لك النغم ثم يتركك تغنى على ليلاك . ومن الشعراء من تجدهم كأحداث الرسامين يرسم لك الشجرة فلا يترك ورقة من أوراقها . ويلقى إليك بقصة فيقررها كما يقرر الشاهد شهادته أمام القاضى . أولئك ككتاب الهيروجليفى يصورون لك شكلا ما هم عاجزون عن تصويره معنى والأمى يتراءى له كأنه تلك التصاوير أحكم من الحروف تمثيلا وأوضح منها مدلولا .

وأما فيما عدا ذلك فشعر حافظ كما قال فيه الدكتور شميل ولم يرد أن يطريه «كالبنيان المرصوص متين لا نجد فيه متهدمًا» فهو يعتمد فى تعبيره على متانة التركيب وجودة الأسلوب أكثر مما يعتقد على الابتداع أو الخيال .

نوبة الخفقان :

إذا كان قلبى بين جنبى مضمـرا
لى الغدر لم أرهب القلب أمرىء غدرا
إذا دق لا أدرى أتتبـع بعدهـا
لـه دقـة أم أنها الدقـة الأخـرى

الألياذة :

أضاع البستانى أعوامًا فى تعريب الألياذة لو قضاها أو بعضًا منها فى تعريب نخبة من أسفار الحكمة الغربية لكان ذلك خيرًا للعربية وقرائها من نقل كل ملاحم الأقدمين إليها . نقل إلينا تلك الملحمة الضخمة التى تشتم عنجهيات البدو وجلافات القبائل فى كل قصيدة من قصائدها ؟ على حين بدأ الأوربيون أنفسهم يمجونها ويزهدون فيها . وما كانت تطرب إليها نفوسهم فى عهد من العهود ولكنهم يقلدون فى الإعجاب بها بعضهم بعضًا . فيكتب النقاد فى تقريطها ويترنم القراء بوقائعها وأناشيدها وكلهم يظن أن غيره أعلم منه بسر ذلك الإعجاب المستولى على الجميع وكلهم فى الحقيقة سواء فى جهل ذلك السر وما جعل للالياذة هذه القيمة بين كتب الأدب المعدودة فى لغات الغربيين إلا أنها الكتاب الوحيد الذى بقى لجامعات أوربا جيلا بعد جيل تدرس فيه بلاغة اليونانية وقواعد شعرها القديم . فكان يتلوها منهم كل كاتب قبل أن يكتب وكل شاعر قبل أن يشعر ويعتبرونها كما يعتبرون سفرًا يدرس فى الجامعات ثم يتشدقون ويتفيهقون بها تفيهق عارف اللسان المجهول وقارىء الكتاب النادر .

ولقد فقدت هذه القيمة بترجمتها إلى اللغة العربية ، فلم يبق فيها إلا تلك السخافات والحماسيات التى لا أشبهها الا بوقائع سيف بن ذى يزن وأبى الهلالى مما يقرأه كل منا فى حداثته ولكن الوهم قد صيرنا لا نجرؤ على النطق بأسمائها كما صيرهم الوهم يشيدون بذكر الياذتهم وينصبون ناظمها المستتر ملكًا على الشعراء .

الرشوة :

فشت الرشوة والصنيعة فى الشرق لأن الشرق عش الاستبداد والرشوة والصنيعة تفشوان حيث تنطلق يدا الحاكم بلا مراجعة ولا تعقيب فلا مناص للشاكين والطالبين من استرضائه والاحتماء به . أما حيث تنحصر سلطة الحاكم فى تطبيق أحكام القانون فانهما يمتنعان إلا بقدر ما يفضل بعد تنفيذ السلطة العمومية من سلطة يكتسبها الموظف لشخصه .

الطريقة الانشائية :

العناية بتنميق الألفاظ عيب الطريقة الإنشائية وحسنتها فى آن واحد ، وهى عيبها لأن المبالغة فى العناية بالألفاظ من طبيعتها أن تصرف صاحبها عن تحرى المعانى والتثبت من الحقائق . وهى حسنتها لأن هذه العناية من طبيعتها أن تغزر مادة الكاتب اللفظية فتتوارد الكلمات على سن قلمه بلا تعمل أو كلفة فيجرى قلمه فى الكتابة جرى لسانه بالكلام . وحقق ذلك العيب وهذه الحسنة فى كتابات جماعة الإنشائيين من كتاب الجيل الماضى وأعنى بهم أمثال الطويرانى وعبد الله نديم والشدياق واللقانى وأديب إسحاق وإبراهيم المويلحى وإضرابهم من زعماء الطريقة الإنشائية .

وحدة الحكومة :

لا أرى لماذا يخطر للأكثرين أن الجامعة الإنسانية تقتضى وحدة الحكومة . فليس ما يساعد على هذه الخاطر اليوم ، وربما كانت الحكومات المستقلة غدا أكثر منها اليوم عددًا . فلا أهمية البتة لوحدة

الحكومة فى تكون الجامعة الإنسانية ويكفى أن الأمم سوف تساس فى المستقبل طبقًا لنظريات مشتركة فى الحكم وتجرى على وتيرة واحدة فى أوضاع العمران . ذلك أدعى إلى التقارب والتآخى من اشتراكها فى أشخاص الرؤساء الذين يحكمونها . ومتى وصلت الأمم إلى مستوى واحد فى الأفكار والنظامات فما أغناها إذ ذاك عن الانضمام تحت قطعة واحدة من القماش .

القضاء والقدرة فى الطبيعة :

ليس لنا فى أعمالنا اختيار حقيقى بالمعنى المراد من الاختيار بل أن اختيارنا نفسه نتيجة أعمال اضطرارية تقوم بها وظائف الجسم . ومن ذلك يتبين مقدار مافى قول القائلين برفع القصاص عن فاقد الاختيار من الوجاهة أو عدم الوجاهة فى بعض الظروف .

كلنا ننطوى :

أينعـى يازهـور ... واهتفى يا طيـور
والعبـى واطـربى ... يا بنـات الغديـر
وانشـرى يا صبـا ... نافجـات العبير
واخطـرى سحـرة ... بين نـور ونـور
واسعـى فى الدجـى ... ساعـة يابـدور
ساعـة تنقضـى ... فى دهـور تـدور
كلنـا للـردى ... والبرايـا غـرور
كلنـا ينطـوى ... فى ظـلام القبـور

* * *

السعادة

السعيد من لايفكر بالسعادة .

حرم الأوهام

الخيالات الشعرية والأساطير الدينية ، مستطابة فى موضعها محترمة مادامت فى كسر دارها ، ولكنها متى تعدت مرة منطقة وخاطرت بنفسها إلى منطقة الحقائق ، فعقابها هناك الإعدام ودمها هدر . كذلك حمام الحرم . فمن أرادها فليطلبها فى موطنها ولا يخرج بها منه فيجنى عليها وعلى نفسه بهذه الغربة المميتة .

عرض الحياة

ترى من سيرة الجانب الأكبر من الناس فى حياتهم كأنهم يخالون أنهم دعوا فى العالم إلى وليمة يأكلون فيها ويشربون ويقصفون ويطربون ثم ينصرفون فى آخر الليل ليناموا : لعمرى إذا كان هذا هو الغرض من كل حياتنا هذه فما أحقر ما يفوتنا بالموت من حياتنا . وما أشد ما ظلمنا الموت بهذه البغضاء .

سائلو بطرس باشا :

ليت شعرى ماذا كان يعنى شوقى بك بقوله على قبر بطرس باشا :

القوم حولك يابن غالى خشع   يقضون حقًّا واجبًا وذماما
يتسابقون إلى ثراك كأنــه   ناديك فى عهد الحياة زحامًا
يبكون موئلهم وكيف رجائهم   والأريحى المفضـل المقدامـــا

أكان يريد أن يقول أن زائرى قبر الرجل وفيهم ساداته الأمراء الوزراء والعظماء والعلماء . وفيهم نائب مولاه الأمير ووكلاء الدول أكابر السراة والوجهاء . أكان يريد أن يقول أن هؤلاء كلهم ممن كانوا يقصدون من نادى ابن غالى موئلا وكهف رجاء يستعطفون ن أريحية ساكنة الجواد ويستدرون من أفضاله ؟ أم أراد أن يقول كما قال الناس فى هذا المعنى فاخطأ التقليد ؟ أم لعله كان لا يريد ن يقول شيئًا ؟ أم تراه يحسب أنهم ملكوا عليه حتى دموع عينيه أنه نائحة المعية أعيد ليرثى كل من يموت من خدامها بلا مقابل ؟

الحر والخصب ينميان الأديان كما ينميان الأغصان :

الحر والخصب كلاهما طبعا الشرقى على الكسل وقلة العمل وكلا هذين من دأبة أن يطلق للفكر عنان التصور والخيال . ويغرى النفس الاسترسال فى الأمانى والآمال . فالشرق من قديم الأزمان مهد لأديان ومهبط وحى الوجدان . وليت شعرى إذا لم تكن العقائد من نتاج الخيال . فعلام لا ينشأ إلا فى الشرق أمثال برهما وبوذا وكونفشيوس وزردشت وموسى وعيسى ومحمد وسواهم من الأنبياء وواضعى الديانات ؟

ابن حمديس :

شاعر صدت عنه الشهرة بعد أن أقبلت عليه ، وطواه الخمول بعد أن طبق ذكره الآفاق .

فلقد نسى الرجل بعد أن ذاع اسمه فى العالم العربى ، فكان ينشد له فى قرطبة ومراكش وصقلية ومسينى وبغداد . استدعاه المعتمد ابر

عباد من قرطبة إلى أشبيلية وكان قد اجتباه فلم يزل صديقه ملكا وأسيرًا ، وذكره أكثر أصحاب التراجم والسير فأشار إليه ابن الخطيب فى نفح الطيب ، وشهاب الدين العمرى فى مسالك الأبصار ، وعماد الدين الأصفهانى فى جريدة القصر وجريدة العصر ، وابن القطاع فى الدرة الخطيرة والمختار من شعراء الجزيرة وذكره هذا أيضًا فى طبقات الشعراء ، وأبو الصلت بن أمية الأندلسى فى الحديقة ، وحاجى خليفة فى كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ، وابن بشرون الصقلى فى المختار فى النظم والنثر ، وابن بسام ولا أذكر أين نقله ابن خلكان فى وفيات الأعيان . ونقل له بعض هؤلاء عن بعض ، وأطنبوا الثناء عليه بما عرفوا من قدره . ولكن وافق بعده أن اضمحلت دولة العرب فى المغرب وانقرضت لغتهم من تلك الأمصار فضرب النسيان على اسمه مع ما ضرب عليه من معالم مدنيتهم هناك .

ولكن هذا الشاعر المجهول قد زاد بديوانه على ثروة اللغة العربية ذخيرة أضاعها التفريط وأودع ألفاظها من المعانى مالم يضمنها إياها شاعر عربى آخر . ولقد كان ينبغى أن لا نذكر المتنبى والبحترى وابن أبى حفصة وابن هانىء وغير هؤلاء من محترفى الشعر ، كان ينبغى أن لا نذكرهم مرة إلا ذكرنا ابن حمديس مرارًا . هذا الذى لا يذكره قراء العربية إلا كما يذكرون شعراء الفرس والصين ولولا «ابن» قبل حمديس لما درى أكثرنا ان كان اسم رجل أو اسم مكان .

ولم يأت واحد ممن أشاروا إليه ولا على طرف من سيرته ولا

بينوا مسقط رأسه وتفصيل نشأته ولعلهم كانوا يجهلون ذلك أو لعلهم لم يستقصوه كعادتهم فى إيراد التراجم . فكل ما عرفته من أمره بعد أن تصفحت ما عثرت عليه من المصنفات التى ورد فيها اسمه أنه وفد على المعتمد بن عباد سنة احدى وسبعين وأربعمائة وفى تلك السنة رحل إلى أفريقية وصحب العرب وأن له كتاب الجزيرة الخضراء من بلد أندلس ، وقال ابن بشرون أن والده عبد الجبار كان شاعرًا وفضله على أبيه . وقد اتفق أكثر من واحد على أنه قضى نحبه فى سنة سبع وعشرين وخمسمائة ، وقال بعضهم كان ذلك فى شهر رمضان من تلك السنة وأنه توفى فى جزيرة ميورقة وقيل ببجاية ودفن إلى جنب ابن اللبانة الشاعر المشهور وزعم أنه قد عمى فى أواخر أيامه — ويظهر من قصيدته فى المصا التى يقول فيها :

كأنما وهى فى كنفى أهش بها   على الثمانين عامًا على غنمى

ومن قوله فى موضع آخر :

ثمانون عامًا عشتها ووجدتها   تهدم ما تبنى وتخفض ما تعلى

أنه قد بلغ الثمانين أو ناف عليها فيكون قد ولد حوالى سنة سبع وأربعين وأربعمائة وأنه قد صار شاعرًا تقربه الخلفاء فى نحو العشرين من عمره .

طبع ديوانه بروما طبعة غالية من نسخة نقلها «زكريا بن خضر بن على بن طاهر البقاعى ثم اللبنانى ثم الدمشقى» وفرغ من كتابتها فى شهر ذى القعدة سنة ست بعد الألف . واسمه فى نسخة من ديوان عبد الجبار بن أبى بكر بن محمد بن حمديس الصقلى السرقوسى ،

ويدعوه بعض الرواة أبا محمد عبد الجبار ولعلها كنية ومنهم من ينسبه إلى الأزد .

أما الديوان فجيد أكثره لا سيما ما كان منه وصفًا أو نسيبا صانه الاهمال عن الابتذال فلم تبهت له من القدم طلية ، وله سرقات عن بعض شعراء المشارقة ولكنها سرقات ظاهرة أو هى سرقات أمام العين كما يقولون . أما فهمه للشعر فيختلف عما كان يفهمه منه قدماء الشعراء فقد تذوق كنه الشعر ونفذ إلى روح الالهام ، فمن قوله فى الشعر .

ووجدت علم الشعر أخفى من هوى
لم تفشه عين لعين رقيب

وقال فى معرض آخر :

وإذا أردت بأن تصور للمنى صورا فسلمها لفكرة شاعر

شعره وجدانى لا صناعى ، فهو براء من المديح المتكلف والوصف المدعى ، ولذلك تعرف من الشعر من هو الشاعر ، فكان الرجل عفيف اللسان يترفع عن الفحش والمقال القبيح كما قال :

انى امرؤ لا ترى لسانى منظما ماحييت هجوا

وكان سليم الطبع جليل القدر ، فكان يرتاح المعتمد بن عباد إلى بث شكايته إليه ويجد سلوة فى مراسلته بعد أن نفى إلى أغمات فيجيبه الشاعر بما يفعل بنفسه فعل المرهم بالجرح النغار .

أنظر كيف يمدح عن سرور قلبى بالعمل وإعجاب صحيح

بالممدوح . قال يمدح أبا الحسن على بن يحيى ويذكر رده أهل سفاقس إلى أوطانهم :

يا يوم مرجعهم إلى أوطانهم أرجعت أرواحا إلى أبدان
نزلت بك الأفراح فى عرصاتهم وبها يكون ترحل الأحزان
فلذات القلوب إلى القلوب تراجعت
فى ملتقى الآباء بالولدان
والأمهات على البنات عواطف والمشفقات على اللدات حوان
سر القرابة بالقرابة منهم وتأنس الجيران بالجيران
وتزاور الأحباب بعد قطيعة دخلت بذكر الود فى النسيان
فى كل بيت نغمة ومسرة شربوا سلافتها بلا كيسان
ودعاؤهم لك فى السماء محلق حتى لضاق بعرضه الأفقان
كحجيج مكة فى ارتفاع عجيجهم وطوافهم بالبيت ذى الأركان
صيرت فى الدنيا حديثك فيهم مثلا يمر بأهل كل زمان
فخر يقيم إلى القيامة ذكره مثل الشنوف تناط بالآذان

وقال يرثى جارية له غرقت :

وواحشتا من فراق مؤنسة يميتنى ذكرها ويحييها
أذكرها والدموع تسبقنى كأننى للأسى أجاريها
جوهرة كان خاطرى صدفا لها أفيها به وأحميها
يا بحر أرخصت غير مكترث من كنت لا للبياع أغليها

* * *

ابتها فى حشـاك مغرقـــة   وبت فى ساحلبك أبـكيها
ونفحة الطـيب فى ذوائبها   وصبغة الكحل فى مـآقيها
عانقهـا الموت ثم فارقهـــا   عن ضمة فاض روحها فيها
ويلى من الماء والتراب ومن   أحكام ندين حكمـا فيها
أمـاتها ذا وذاك وغيرهـــا   كيف من العنصرين أفديها

* * *

فهل سمعت أهدأ من هذا تفجعًا ؟؟ لو كانت هذه الجارية لسيف الدولة أما كان المتنبى يكسف الشمس ويخسف القمر وينثر الكواكب شذر مذر .

وهل فات واضعو الأناشيد الوطنية قائلا يقول قبل ثمانية قرون .

ولو أن أرضى حرة لاتيتها   بعزم يعد السير ضربة لازب
ولكـن أرضـى كيـف لى بفكاكهـــا
من الأسر فى أيدى العلوج الغواصب

وكيق يقول فى الفونوجراف من هذا قوله فى العود :

فى حجرة أجوف له عنق   نيطت بظهر نخالة حدبـة
يمد كفًـا إليـــه ضاربـــة   أعنـاق أحزاننـا إذا ضربـه
قلت الا فانظروا إلى عجب   جاء بسحر فانطق الخشبـة

وماذا أبقى لمصورة الفلكى بعد هذا الوصف .

والبـدر قـد ذهب الخسـوف بنـوره
فى ليلـة خســرت أواخــر مدهـــا
فكأنـــــه مــــــرآة قين أحميت
فمشــى احمرار النـــار فى مسودهـــا

فعسى أن يوفق إلى نشر ديوان هذا الشاعر وطابع يعرف فائدته وفائدة القارىء حتى لا ينفرد بين أبياته الصادقة هذا البيت :

انى امـرؤ ابنـى القـريض ولا أرى
زمنًـا يحاول هـدم مـا أنـا بـان

الشتاء فى أسوان[١]

ألق الربيع على البشير   كانون آذان بالظهور
أسوان تزهو حين يذ   بل كل مخضر نضير
فى كل مربأة بها   نور تألق فوق نور
بلد تجود له الطبيـ   ـعة بالصغير وبالكبير[٢]
لا تستجن شموسه   إلا على غير البصير
فهراؤه برء العليـ   ـل وماؤه عذب نمير

* * *

ما طب جالينوس قيس   بطبه إلا غرور
أبدًا تحوط به ودا   ئعها بسور خلف سور
من كل شاهقة كأن   م قلالها عمد الدهور
حصن تهاب طروقة   م الآفات طرًا والشرور

* * *

---

(١) هذه أسوان فى الشتاء . وأما فى الصيف فلها حال آخر ولكم وددت أن أشير على من يتشوف الى استطلاع أسرار العالم الأخير بأن يقيم عاما فى أسوان . فيعلم بين شتائها وصيفها كيف تكون الجنة والنار والنعيم والعذاب .

(٢) أما الصغير فما يشاهد فيها من شتى المناظر الجامعة . وآيات الطبيعة الرائعة . وأما الكبير فمناجم الذهب التى كشفها ذلك القنصل الأميركى كما أداع روتر منذ شهور . وطينة الصينى التى رفع عنها المسيو وليم دى مورجن تقريره إلى ناظر المعارف فى سنة ١٨٩٥ وتابعه فى ذلك الفنيون ممن فحصوا تربة المدينة ، وستظهر غير هذا ما سيجعل لهذه المدينة المهملة شأنًا بين مدن القطر إن لم نقل بين مدن المعمور .

يولـــون أقفـــر غـــابها · مـــن كل مختـــار فخـــور
سرحت صوادحها واطلــق م ورقــة الايك الــنضير
يلقـــن حبـــات القلـــوب م من الجوانح والصـــدور
الفاتنـــات تكـــاد إحداهـــن م مـــن حســـن تـــنير
الناهـــدات كما تـــرى الا م هرام فى الرسم الصغير
العبهريـــات الشـــذى الكوثريـــات الثغـــور

* * *

الــــورد فى وجنـــاتهن م يضوع فى كل الشهور
المرســلات الشعـــر كالـــذ م ريـاب مصغــرا غزيـــر
متمنطقـــات بالدمـــقس م مـــؤزرات بالحريـــر
مـــن كل قـــاع جـــؤذر تلقـــاه أو ظبـــى عريـــر

مثل الشموس برزن لـــلا م كوان من فجر الشعور
داراتهن مطالـــــــــع لم تدر مـــا نـور البــدور
فيهن معتـــرك الغـــرا م ومعرض الحسن الطرير
الحور هـــن خلقـــن للـــ ـفـــردوس لا للزمهريـــر

* * *

الماء فـــاض على الجنـــا دل والسواحـــل والجســـور
خلجانــــه تنســـاب كالـــ ـحيات مـــا بين الصخـــور
متسابقـــــات كالســـــوا بـــق فى مجال مستديـــر
والنيـــل مصطفـــق كمـــن قـــد هزه فـــرط الســـرور

متدفـــع الأمـــواج تـــر قص وفق توقيـع الخريـر
وتـرى الـزوارق كالبـــوا شق حومًا أو كالنســور
قـد حـار فيها العنصـران ن الـريح والماء القديـر
والشـمس شاخصـة تكـاد م تنوء من جهـد المسير
فضفاضـة الأذيـال تخطـر م كالعـروس إلى السريـر
وكـأنها فـوق الـذرى فــوق الجزائـــر والبرور

حسنـــاء تـرقب قادمـــا فى النيل من أعلى القصور
وعلى الـروابي والهيـــاكل م مسحـة الشفـق الأخير
تبدو كما نصل الخضـاب بعـارض الشيـخ الوقـور
مـــا كان أول مغـــرب شهدت على مر العصـور

* * *

كم آية فى الكون أخفـى م من خفيـات الضـمير
مـن لا يـرى إلا العيـا ن فمـا يـرى إلا يسير

مساوىء المدينة ومحاسنها

التقدم الاقتصادى مصحوبا دائما بشرور وقساوات تنكر وجه المدنية وتدنيها فى السحنة من ضرتها الهمجية . ومع ذلك فهذه الشرور ضرورية ولابد منها . بل هى شرور إذا لم تظهر بذاتها وجب علينا أن نعمل لإيجادها . فان كل شر منها يسبق دائمًا إصلاحًا اجتماعيا يعم جميع الجنس البشرى . وإليك مثلا أو أمثالاً . فلولا ازدحام أوربا لما عمرت أميركا . ولولا طمع أرباب المعامل لما كان تضامن العمال .

وما ألطف قوله :

يطيب أفواههن الحديث يحمر الشفاة وبيض الثغور
كما مر بالورد وإلا قحوا ن نسيم مشوب بريا العبير

ألا يرتشف من بيتيه هذين رضاب الحسان ، وتتنسم ريح الورد والأقحوان .

وما أغزر دموع هذين البيتين :

ويا ريح أما مريت الحيا ورويت منه الربوع الظماء
فسوق إلى جهام السحاب لأملأهن من الدمع ماء

وهل قال شلى فى قصيدة القنبرة أحدث من هذا

أصبًا هبت بريحان الصبا أو شمال سكرتنى بالشمول
حيث غنتنى شادى روضة مطربات بخفيف وثقيل
فى أعاريض قصار خفيت دقة فى الوزن عن فهم الخليل
ولحون حار فيها معبد وله علم بموسيقى الهديل
والدجى يرنو إلى أصباحه بعيون من نجوم الجوحول

وما أبلغ وأصدق ما قال :

واشراك الردى فى الغيب تخفى كما يخفين فى ترب الحضيض
عجبت لجمعه فيهن صيدًا حوى بين القشاعم والبعوض

وأين بيتا صبرى أو شوقى فى تنزيه صاحبتهما من هذا البيت :

لا تنكرى أنك حورية روائح الجنة نمت عليك

ولا استبداد الرأسماليين لما وضعت مبادىء الاشتراكية التى ستغير أصول الشرائع والآداب فى العالم قريبا . ولولا جشع المرابى لما تأسست نقابات الزراع . وهكذا كل داء يحمل ترياقه فى جراثيمه . وكل سيئة طارئة يتبعها حسنة دائمة مما لا تكفله لنا الطبيعة ولا الطبيعيون .

أما ساداتنا الفلاسفة الذين يهشون على الجنس البشرى كما يهش الراعى على غنمه ، صائحين : ارجعوا إلى الطبيعة ! عودوا إلى المروج والحقول ! فلا أعلم أهم يظنون العالم يعيش الآن فيما وراء الطبيعة ! أم لعل الطبيعة لا تأوى إلا بين الأشجار والظلام والأودية والجبال !

الغرام بالفلسفة القديمة

شاهدت بعض الأدباء ينهمكون فى مطالعة كتب الفلسفة اليونانية . وينكبون على تطبيق قضايا علم المنطق . ويسهرون الليالى فى مذاكرة الغاز علم الكلام وما هو لو أصابوا إلا علم الكلام الفارغ إن كان للكلام الفارغ علم يدرس . يتحملون كل هذا النصب فى الاشتغال بتلك المغالطات والتخمينات ولو بذلوا بعضه فى تحصيل العلم الحديث لأوعبوا منه القسط الأوفر .

لا أنكر أن مراجعة الفلسفة القديمة مما لا بأس به للوقوف على حركة الأفكار . ولكن لا إلى الحد الذى يشغلنا عن فلسفتنا . كما أن زيارة الأطلال والآثار مطلوبة للنظر والاعتبار ولكن لا يصح أن تنسينا بيوتنا .

البغاء :

سل الكتاب الفضلاء الذين يدهشون لانتشار البغاء بن الرجال والنساء : ما الذى يدهش من الأمر ؟

أمن طبيعة الزوج أن يقتصر على امرأة واحدة أم طبيعة الزوجة أن تقتصر على رجل واحد ؟

لا هذا ولا ذاك .

فالقيود الأدبية هى التى قسرت كلا من الزوجين على الاكتفاء بالآخر . وكان البغاء يكثر أو يقل حسب اشتداد تلك القيود أو ارتخائها تبعًا لاعتداد الرجل بقوته البدنية أو قلة قيمتها عنده (راجع حماية العرض صفحتى ١٨ ، ١٩) .

فإذا بحثنا عن علة لهذا البغاء فلا نبحث عنها فى الرجل والمرأة فانهما لم يتغيرا فى طبيعتهما عن ذى قبل . إنما نبحث فيما تغير من تلك القيود والحدود . وها نحن نراها كلها فد تبدلت دينية كانت أو أدبية لأنها لا تلائم عصرنا . والذى علينا أن ننتظر حتى يهيىء المجتمع نفسه كما يلائم هذه الحال أو يحدث لنا قيودا جديدة فى موضع تلك القيود المنحلة .

وإلا فاذا كنا لا نعلم إلا اشمئزاز النفوس منفرًا من البغاء العقيم ، فبأى حق نحظر فعله على من لاتشمئز نفسه منه ؟

جناية الصناع على الصناعة :

لو كان لا يتوخى الصانع غير المقصود من صناعته لرأيت الصنائع أبعد فى طريق الكمال والاتقان مما تراها الآن .

تقول للمغنى : هذا صوت شجى . فيقول لك أى نعم ولكنه على غير ألحان الغناء .

وتقول للخطاط : هذا خط حسن . فيقول لك حقًا ولكنه لا ينطبق على قواعد الكتابة . وتسمع مثل ذلك من الكاتب والطبيب والنجار والحداد .

فياذلك المغنى وياهذا الخطاط ، ما طلب الناس منكما إلا صوتًا مطربًا أو خطًا معجبًا . فاطويا قواعدكما أو فالقياها فى أليم مادام الصوت يطرب . والخط يعجب بغير تلك القواعد .

الكاتب والشاعر :

الكاتب من تتشخص له فى كتابته روح يتجلى فيها نهجه ومذهبة وسياق أفكاره . وهذه الروح هى السمة التى تميز بين قلم وقلم . فاذا كانت تتضاهى أنساق الأيدى . فانساق العقول لا تتضاهى إلا إذا كان منحاها فيها التقليد لا الابتكار . أما غير هذا الكاتب ممن يستمدون ويخططون . فأولئك نساخ يستعيرون أساليب غيرهم لمعانى غيرهم . فليس لهم من كتاباتهم إلا الإمضاء . أو هم توائم لا يعرفون إلا بالأسماء .

وكتابات هذه الزمرة أقرب إلى مواضيع إنشاء التلاميذ منها إلى

ثمار القرائح ومبتكرات الأفكار . فالترجمة اليق ما يتسبب به هؤلاء إلى حرفة الكتابة . هذا إذا كانوا يجيدون لغة من اللغات وإلا ففى غير الكتابة من الحرف ما يغنيهم عن تلويث أصابعهم بالمداد .

أما الشاعر فاسمه بلغتنا يشير إلى تعريفة ولعل معجما من معاجم اللغات لا يتضمن إسمًا للشاعر أدل على مسماه من اسمه فى اللغة العربية .

قد عرفنا أن وزن الأعاريض غير قرض الشعر ، ولكن من هو الشاعر ؟

أهو المقصد الذى لا يعجز عن ترصيع قصائده بما يبهر ويخلب من الخواطر البراقة والمعانى الخطابية المتلألئة ؟

كلا ! هذا شاعر يذكرنى بصاحب ذوق مبهرج يريد أن يزين غرفته بالرسوم فيرصص سجوفها وحوائطها بالإطارات والكفافات حتى لا يبرز منها قرن أو تظهر فيها زاوية . أو بذاك المصور الذى يصنع رسمه ببهى النقوش وبهيج الألوان ليبهر بها أبصار الناظرين . أو بتلك القروية التى تحلى يديها فتدس عشرة أصابعها فى أنابيب من مختلف الخواتم والفصوص .

فليس الشاعر من يزن التفاعيل ، ذلك ناظم أو غير ناثر . وليس الشاعر بصاحب الكلام الفخم واللفظ الجزل . ذلك ليس بشاعر أكثر مما هو كاتب أو خطيب . وليس الشاعر من يأتى برائع المجازات وبعيد التصورات . ذلك رجل ثاقب الذهب حديد الخيال .

إنما الشاعر من يشعر ويُشعر

ولقد ضاع الشعر العربى بين قوم صرفوه فى تجنيس الألفاظ وقوم صرفوه فى تزويق المعانى ، فما كان شعرًا بالمعنى الحقيقى إلا فى أيام الجاهليين والمخضرمين على ضيق دائرة المعانى عندهم وسيعود كذلك فى هذه الأيام على يد أفاضل شعراء العصر .

قاسم أمين :

أن اسم قاسم لحقيق من فتياتنا وآنساتنا بأن يرقمنه فى الشنوف ويطرزنه على المناديل . فإن ذلك عنوان عرفان الجميل ، وأنه لأحيا أثرًا من رفع النصب وإقامة التماثيل .

تحرير المرأة ليس من الأعمال الطنانة التى أكثر ما فيها دوى ورنين . ولكنه عمل هادىء رصين ينزوى فى البيوت والخدور . لا يبرز إلا قليلا على قوارع الطرقات ولا يصرخ إلا نادرًا على منابر المنتديات .

فالمرأة المصرية مدينة لقاسم لأنها كانت سجينة فأطلقها وكانت أمة فأعتقها . والأمة المصرية مدينة لقاسم لأنها كانت شلاء فأبرأها من ذاك الشلل الذى أمسك شقها عن الحركة دهورًا وأعوامًا . والإنسانية مدينة لقاسم لأنه أنقذها من رق لا تجرأ مصلحة الرقيق على مطاردته . والفخر فى تحرير المرأة لا يزال الآن من نصيب قاسم . أما من قفوه فى هذا المقصد فهم إنما درجوا على طريق بينة الآثار وسلكوا فى منهج مأبور .

الحقول العامة والاستعمار :

اباحة الحقوق العامة لكافة الأفراد فى كافة الأوطان مرهونة على زوال الاستعمار .

ومتى يزول الإستعمار .

متى عولت الدول على جودة البضاعة لا على قوة الاساطيل . وأخذ كل أهل إقليم فى استغلال أقليمهم واستخراج ذخائره فتسقط حجة المستعمرين الذين يقولون – وهم صادقون فيما يقولون – أن الاحق بالأرض هو الأقدر على الانتفاع بخيراتها والنفع بها .

يومئذ يبطل الإستعمار . ويومئذ ترشد الأمم من ضلال الوطنية فلا يطلب الوطن من الفرد إلا عضوًا عاملا ولا يطلب الفرد من الوطن إلا محلا للعمل . يومئذ تتحد وجهة الإنسانية فتتكاتف وتتآزر بعد أن كان تتقاطع وتتدابر .

اللغه العربية :

قد لاتقل اللغة العربية عن أوسع اللغات فى كثرة المفردات ولكنها لاتزال من أفقرهن فى المعانى وقد لاتنقص مواد المعجم العربى عن بضع مئات من الألوف ولكنها مع ذلك تظل أفقر من لغة أخرى لاتشتمل على أكثر من ثلاثين أو أربعين ألف مادة ذلك إن اللغة العربية ليست لغة واحدة وإنما هى مجموعة لغات شتى فربما كان للشىء الواحد عشرة أسماء تدعوه كل قبيلة باسم منها لا تدعوه به أخرى مما أكثرفيها المترادفات بلا جدوى فبينما نستغنى فى معنى من المعانى

عن ستة أو سبعة أسماء نحتاج فى معانى أخرى إلى اسم واحد . وقد شعرالعربى بهذا الافتقار فى المرتين اللتين اضطر فيها إلى الخروج من الدائرة الضيقة التى كان فيها بين المناخ والبيداء ومضارب الخيام . الأولى لما نقل الفلسفة اليونانية فدخل فى اللغة العربية كثير من مصطلحات اليونان وحدثت فيها أوزان واشتقاقات لم تكن تمس الحاجة إلى استعمالها من قبل والثانية فى عصرنا هذا عند انتشار العلم الحديث باكتشافاته واختراعاته التى لم تكن تخطر لكان البدو أوالحضر على بال .

أقول ذلك توصلا إلى القول بوجوب توسع اللغة العربية الفصحى بنحت جملة من كلمات اللغة الدارجة فى بنيتها ونقل المصطلحات العلمية والفنية إليها كما هى فى لغاتها الأصلية لئلا نجشم الطالب العربى مراعاة اصطلاحين عوضًا عن اصطلاح واحد ولئلا ننفصل عن الحركة العلمية العامة فتنشق بين أمم العالم بعلم عربى لاقبل له بمساوقة علم الأمم جمعاء .

فالعلم العصرى علم الإنسان وليس علم العربى أو الانجليزى أن الفرنسيين فالاهتمام بتعريبه عبث واشتغال بما لايفيد .

مسقبل الشعر

الشعر يخالف العلم ولكنه لايناقضه الطب الهندسة وتناقض الكيمياءالطبيعة .

والرجل الراقى يفترق عن المنحط بكيفية التخيل لابكميته فالأول

مرتب الخيال لطيفة والثانى مشوش الخيال كثيفة فالعالم لاينقص خيالا كلما ازداد علمًا .

فاذا تنبأ علماء العصر فليتنبأوا بتحسن الشعر وارتقائه لابحؤله وامحائه .

* * *

ياراحلا صدع الحمام شبابه ... فعلمت كيف تصدع الأكباد
إنى لاحسبنى أراك مجاهدا ... والنيل حولك دائم الازباد
وأراك ترمقنى وقد غلب الردى ... وأقام جند الموت بالمرصاد
فى ساعة ماكان أغفل خاطرى ... عما عراك وفت فى الاعضاد
أمسيت رسمًا فى التراب معطلا ... وغدوت نصب روائح وغواد
ويحى !أترقد تحت أطباق الثرى ... واقيم بعدك هانئا برقاد
أتبيت رهن صفائح وجنادل ... وأبيت بين وسائد ومهاد
لو أنصفت أيامنا لبكيتنى ... لكنهاتجرى بغير مرادى

* * *

سقيًا لأطهر موجتين أقلتا ... بين الجوانح أطهر الأجساد
حنتا عليك وضمتاك كأنها ... ضمات صدر أخيك بعد بعاد
فمضيت بينهما كأنك هاجع ... واها لذاك الهاجع المتهادى
يازهرة شرقت بما تحيا به ... فذوت وأورق شوكها بفؤادى
إن الحياة – وماحييت لكى ترى ... سرالحياة – كثيرة الاضداد
فلئن عدوت من الحياة نعيمها ... فلقد عداك شقاؤها المتمادى[1]

(١) رثاء أخ لى مات غريقًا وقد ضاعت أكثر أبيات القصيدة كما ضاع غيرها من الأبيات والقصائد بين الذاكرة والأوراق .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عزاء الى ضيف الشارع :

أيهما أرفع فى حكمكم ... ياأمة ديدنها الخس
منعم توقظه غادة ... أوبائس توقظه الشمس
غطاء هذا ريطه رصعت ... نجمًا وذاك الخز والبرس

الى ساكنة الدور الخامس :

ياطلعة فى العلا تراءت ... تحفها هالة البهاء
أكوكب أنت فى الدرارى ... أم ملك لاح فى العلاء
أم أنت حورية أطلت ... للناس من شرفة السماء
أن تحقرى الأرض فارفعينا ... اليك ياربة السناء

أيها البدر

أنا فى الأرضى ساهر أيها البد ... روفى الأفق أنت يابدر ساهر
ناظرى وحده يراك وقد أغفـ ... ـى من الناس موهنا كل ناظر
فأعنى على السهاد كلانا ... حائم فى الظلام يابدر حائر



الـراحـة

أبونا أدم رجل سبط القامة ، عريض الألواح ، جثل الشعر ، فى لون بشرته أدمة ، وعلى محياه سيماء الطيبة والسلامة ، ولنظراته دلائل الأمانة والجهامة . ولم أدركه أنا ولكنى صادفته فى المنام ، وعرفنى به وحى الدم . والدم كما يقولون جذاب ، والعرق دساس . فلما صادفته ذكرت موجدة طالما وجدتها عليه كلما راجعت سيرته فى الجنة . فقلت له ياأبانا يغفر الله لك : ماأقل ميراثك وأكثر وراثك !! أقطعوك الجنة بما رحبت فلاصنتها عليك ولا حفظتها لبنيك بعدك . ثم خرجت منها فما تزودت من الطافها واطايبها ولا احتقبت من تحفها وعجائبها ، عزاء لابنائك الضارسين بالحصرم الذى أكلت ، والمنغصين بالثمرة التى جنيت . وتركتهم فى ظلمات الحياة يعمهون ، وعلى وجه الأرضين والبحار يخبطون ، فلا يهتدون. فهلا إذ كنت فى الفردوس كان لك بطيبانه المحللة ، غناء عن تلك الشجرة الممنوعة ؟؟ وهلا إذا أكلت منها تذكرت بنيك فقطفت لهم من ثمار الفردوس مايتنسمون منه رائحة تلك الدار التى كنت فيها . ثم أورثتهم الحنين إليها ؟؟ وكان مطرقًا . وكأنما هجت فى نفسه ذكرى منسية ،

فاغر ورقت عيناه بالدمع ورأيته يغالب نشيجه ويتنهد ثم مد إلى يده وقال : قدك يابنى قدك[١] !!

ولاتعجل باللوم على أبيك ، فو الله ما الزلة فى الأولى والأخرة إلّا زلة أمكم حواء سامحها الله . وما نسيتكم علم الله يوم الخروج يوم المعصية والحرمان . أواه . وما كان أحلى تلك المعصية ثم ما كان أمر ذلك الحرمان... كنت أمشى فى ذلك اليوم وأتلفت أسفًا على ما أودع ووجلا مما أنا قادم عليه . وكانت حواء تمشى إلى جانبى ذاهلة مستعبرة . والنساء يابنى يفعلن الأفاعيل وهن بعد لايملكن فيها غير الذهول والبكاء فبينا أنا أمشي وأتعثر ، وأبطىء الخطوة أستزيد بها الدقائق وقد كان لنا ثم مقام الأبد لولا مافرطنا ... إذ عابت على قدى خطوات جوهرًا وهاجا قد صفت حوله الطير وحفت به الأملاك ، وهم ساهون عنه غير مقبلين عليه – ذلك جوهر الراحة يابنى ومن آفته أن من يحرره لايحس به ولا يقدر قيمته . فأوضعت إليه فالتقطته ولم يشعر بى أحد .

قلت: وأين ذلك الجوهر يأبتاه! أهو معك الأن ؟؟ قال: مهلا . إنى خشيت أن أظهر حواء عليه فترز أنابه كما قد زرأتنا بالنعيم كله . فسترته بيدى وما كادت تمس الأرض قدمى حتى أسرعت فخبأته

---

(١) قدك أى حسبك .

(٢) أى مسافة .

فى حرز حريز . وقضيت وا آسفاه ولم أطلع أحدًا من أبنائى على موضعه . وهذا سرلا إخالكم وفقتم عليه . فلا غر وأن قام منكم فى الزمن الأخير من ينتسب إلى القردة دونى ، ولا بدع أن تيأسوا من الجنة وتولوا بوجوهكم عنها..!

قلت : بل قد وقد وقفوا عليه . ولا أدرى من أين . ودروا أنك التقطت جوهرًا من الجنة وأنه جوهر الراحة . فطفقوا يبحثون عنه فى اليقظة والمنام وكلما ظنوا أنهم ثقفوه[1] أذاهم أبعد ما كانواعنه — إذا ابتغوه فى الأمل لم ينقص لهم أرب حتى يجد لهم أرب ، وإذا أراغوه[2] فى اللهو فعاقبته الندم ، أو نشدوه فى البطالة ففى البطالة السأم ... تائهين على غير هدى ، ضاربين فى مناكب الأرض سدى . يبدأون ويعيدون ، ويعيدون ويبدأون ، وهيهات مايوعدون .أفلا كفيتهم الأن هذا النصب ، وعوضتهم عما تجشموه من سالف الحقب ؟؟ قال : لاتطمعوا أن تجدوه حيث أنتم كادحون ، فانما قد دفنته تحت التراب .فى مكان لايراه من ينظر السماء ولايرى السماء من ينزل إليه من إليه ... ولكنكم متى حللتم جوف الأرض واطرحتم كل أمل لكم فى ظهرها . فهنا لك الراحة السرمدية !

---

(١) وجدوه (٢) أراغ الشيء طلبه

الغــرور

دخلت على صديق لى أديب فسمعته يجادل رجلا أميا لم يغادر مسقط راسه قط . وكأنه كان يهمه أن يقنعه بضلاله ويؤنبه عليه فكان يخاطبه بلهجة بين الغضب والسخرية ويقول : أى شيء زين لك أنك تفقه من هذه الشئون مالا أفقه وأن لك فيها رأيا تعتد به فترجحه على الأراء كافة ؟؟

أبان الله منحك من ذكاء القريحة ونفاد البصيرة ماقد حرمته ومأدعيت من قبل ولاأدعى لك أحد أنك من أرباب المواهب النادرة والأفكار الخارقة ؟؟

أم بسعة اطلاع وغزارة علم وقد علم الناس وعلمت أنت إننى تقلبت فى مجالس التربية من لدن نطقت بأولى كلماتى إلى أن استغنى عن المسح شاربى[1] وطالعت من الكتب أضعاف زنتك ورقا وأنت لم تقرأ حرفا فى صحيفة ولا تفرق إلى اليوم بين الألف والعصا ؟؟

أم باختبار الناس وممارسة الأيام وانت فى عقر دارك منذ ولدت

---

(١) قال أحد الأعراب فى ولد له عقه :

وربيتــــه حتـــى إذا مـــا تركتــــه فتى الحرب واستغنى عـن المسـح شاربـه

تغمـد حقى ظالمًا ولـوى يـدى لوى يده الله الـذى هـو غالبـه

لم تبرحها صباحًا إلا لتتكفىء إليها مساء ، وأنا قد سايرت الدهر وساريت النجم فقاسيت الغربة وكابدت المحنة وصحبت علية الناس وغوغاءهم ، وبلوت كبراءهم وصغراء هم ، وزاولت كل عمل ، وطرقت كل باب فانكشف لى من ظواهر الناس وبواطنهم مالو أننى لم أقرأ بعده كلمة لكان حسبى ، ومالو أنه لم ينكشف لى لما كنت قد قصرت عن شأوًا انت أدركته ولاجهلت أمرًا أنت حصلته ولم تجهله ؟؟

أم بالسن وأنت نِدَى ، أم بالوحى والألهام وقد انقضى عهد النبوة ، أم بالصدفة ولاحجة للصدفة ؟؟

قلت لعلى أجيبك عما يزين له ذلك . يزينه له الغرور الذى تمتلىء ، منه كل جانحة وتنبض به كل جارحة . ولولاه لمات أكثر الناس غمًا بقصورهم وحزنًا وأسفًا على عجزهم وتخلفهم . وإذا كان لابد لكل إنسان من أن يحب نفسه فلابدله من أن يغتبط بها وإلا فقد عجز الأنسان حتى عن حب نفسه لغير سبب ، كما قدر الغرور على أن يخلق لكل إنسان سببًا يرضيه عن نفسه وأنت لو أمكنك أن توقف إنسانا ثم أمررت أمامه الثقلين جميعًا يقولون له أنه أجهل الناس وأحقر الناس وشر الناس وأضعف الناس ، ثم خلا ذلك الأنسان بنفسه لأمكنه أنه أعلم الناس وأجل الناس وخير الناس وأقوى الناس . بكذب الناس كلهم ويصدق الغرور يقدر على أن يعوضوه عما يسلبه منه الغرور . فان كان فقيرًا علل نفسه بانه سليم الجسد موفور العرض أو بأنه لو أحصيت ديون الغنى وأمواله لكان هو أثرى منه مع الراحة

من عنت الغرماء ، أو أن يدبر ماله القليل بما يجعله أغنى من صاحب المال الكثير ، أو أن الله أخلف له فى ذريته ماأنقص من رزقه ، وأنه يكسب قوته بعرق جبينه وكد يمينه ، وذاك يكسبه من السحت والحرام ، ويبدده فى البذخ والأثام .

وإن كان جاهلا زعم أنه ليس بالغبى ، ولو كان تعلم ماتعلمه العلماء لبزهم فى العقل ، وتقدمهم فى الفضل ، وأنه على جهله يفهم بالبداهة مالا يفهمه العلماء إلا بالدرس واللجاجة

وإن كان مهينًا ذليلا قال مالى وللرفعة والثناء ، والعزة القعساء ، أضيم الأبرياء واعتوا على الضعفاء ، وأروى بهم الحقد والبغضاء ، وما يتبعهما من سوء الثناء ، وأنصب[1] لما ليس يعنينى من الأشياء ، وأخدم المرؤوسين وأنا أحسبنى من الرؤساء ألست أنا فى هذه الدعة والرخاء ، أولى بالغبطة والخيلاء ، وأعز فى ذلتى وضرعى من الأعزاء ؟؟

وإن كان ناشئًا حدثًا والمنافسوه من الكهول والشيوخ قال أجل ولكننى أعلق فى اليوم مالا يعلقونه فى الشهر وأفيد فى الشباب مالايفيدون فى الهرم وأعى وأنا فى الدار مالا يعيه غيرى بغير الرحلات والأسفار ، والتجوال فى شواسع الأقطار .

وإن كان ذميما اتهم المرأة ، أو مجرما سب القضاة ، أو منافقًا قال هذا عين الحكمة والدهاء ، ولب الفطنة والذكاء .

---

(١) أتعب .

وهكذا يعين الغرور كل امرىء على أن لايسلم لمن هو أعلى منه بالسبق والأفضلية . ويدخل عليه أن ماعنده خير مما عند غيره . ومن حسن حظ المغرورين أن النعم والنقم والمناقب والمثالب توائم تتشابه فى السمات ، وتتباين فى الصفات ، ولكل نعمة توأم من النقمة ، ولكل فضيلة صنو من الرذيلة . فالسعادة أخت البلادة والدعة أخت التوانى والأرادة أخت العناد والزمانة أخت الحياء والأنفة أخت العجرفة والقحة أخت الجرأة والاحتيال أخو الذكاء والجود أخو السرف والبخل أخو القصد والمجد أخو الجبروت والحلم أخو الجبن والفصاحة أخت الثرثرة والكآبة أخت الوقار والحدة أخت الضجر وهلم جرا . فيسهل على المغرور أن يمسخ كل فضيلة رذيلة ، ويمثل كل نقمة فى زى النعمة . ويكون هو أسعد الناس بمثالبه ونقمه ، ويكون غيره أشقى الناس بمناقبه ونعمه .

ومما يحكى ويناسب مانحن بصدده أن عجوزا شوهاء قرعاء عوعاء عوراء بخراء وقفت أمام المرآة مرة وجعلت تقول :

عجوز! نعم ولكننى شبت على صلاح... شوهاء ! بلى ولكننى لم أتحال و لم أزور على الناس بالطلاء كما يصنع سمجات النساء ...

قرعاء ! أجل ولكننى لم أدنس رأسى بوساد الخنا والفجور . عوراء ! أى ولكننى لم أنظر لريبة قط ... بخراء ! صدقوا ولكننى طهرت فمى أن الوثه برائحة الهُجر والمهاترة ونتن السفه والمشاتمة فوفرت بعلى وأمن جلسائى من لسانى... قالوا وكان إبليس واقفا يسمعها فقال يافاجرة ! لقد عرضتك على الزناة والفسقة فى مشارق

الأرض ومغاربها فكلهم عافوك وصدوا عنك ، وأقسم لو كان فيك مطمع لغير القبر لما أبيت أن تضمى إلى عيوبك التى فيك هذه المخازى التى تعيرينها[١] النساء ، وتدلين عليهن بالطهارة منها .

والى هنا لانعد الغرور شرًا محضًا . فكم أرضى ساخطًا وكم خفض من جأش محروب وكم طلبة ذابت عليها أنفس الناس حسرات فأعطاهم منها فى الوهم ما لم ينالوهم ما لم ينالوه ولن ينالوه فى الحقيقة . والغرور قد يقعد المرء عن طلاب الكمالات بما يخيل إليه من حصولها عنده واستحواذه عليها ولكنه طالما استفز نفوس الطامحين إلى العلى بمزموا بما أكبر من إخطارهم[٢] فى أنظارهم فالتزموا حقوق المنزلة التى فرضوها لأنفسهم ثم أفضى الأمر إلى أن تبوأوها فاستحقوها بالتطبع بها والمواظبة عليها . فهو خير وشر ، وحق وبهتان . وما أخطأ كارليل حين قال «هو حاسة سادسة لاتشبع» وكما أننا لانصلم الأذن إذا اسمعتنا مانحب ومانكره ، ولا نفقأ العين إذا أرتنا مايسر ومايسوء ولانجدع الأنف إذا أنشقناماينعش وما يؤذى ، ولا نقطع اللسان إذا أذاقنا مايحلو ومايمر ، كذلك لانستأصل الغرور إذا كان فيه مع الصدق الأجل كذب راهن ، وكان الكنز لديه لايخلو من المارد .

---

(١) عيره كذ وعيرة به سواه .

(٢) الأخطار هى الأقدار .

نادى العجول[١]

نبئت أن العجول اجتمعت مرة لتنشىء لها ناديًا تأوى إليه ، ولا تعلم ماذا ساقها إلى هذا الخاطر الغريب : أقلة العلف ، أم ضيق المذاود ، أم ذاك مرض النوادى الذى سرى النبهاء إلى الأغمار ، قد فشا حتى سرى من الأناسى إلى الأبقار ؟؟ هذا سر فى صدور العجول .

فلما تكامل عددها ، وانتظم عقدها ، وقف منها عجل يظهر من كبر دماغه أنه ملم بالتاريخ والأخبار وقال : «أيها الساة !! إن العجل مدنى بالطبع . ونحن معشر العجول قد ميزنا الله على بنى أدم بضخامة الأجسام وصلابة القرون . ولقد عبر بهؤلاء الناس زمان كانوا يعرفون لنا بأسنا ويتمسحون بأذيالنا حتى أيقنوا أن لن يقوى على حمل هذه الدنيا أحد سوانا ، فألهونا من فرط الأجلال ، وسمحوا لنا بالغدو والآصال ، وكانوا يحسدوننا على قروننا فدعوا أكبر أبطالهم وأشدهم بأسًا وأرفعهم ذكرًا أعنى الأسكندر المقدونى بذى القرنين . وما أسكندرهم هذا وما قرناه ؟؟ ألما تنتبهى لما مايحب عليك لبنى جنسك ، وما هو فرض معين عليك لنفسك ......

قال محدثى : ولما بلغ الخطيب إلى قوله هذا بأن الحماس على أوجه العجول قاطبة فهزت رؤوسها استحسانًا ، وفحصت الأرض

---

(١) كتبت هذا المقالة فى ناد اتفق أن اكثر اعضائه كانوا من ضخام الأبدان وقد تأسس النادى لأسباب تجعل لذكر القرون فى المقالة مناسبة ظاهرة !!

باظلافها طربا ، وضربت جنوبها بأذنابها مرحا . وخشى عاقبة هذا الحماس عجل هرم فقام وقال : الآن قد عرفنا مايوجب علينا إنشاء هذاالنادى ، وسمعنا ، فخذوا بنا فى انتخاب الزعيم ، ومن رأى أن لايزيد وزنه عن عشرة قناطير ليكون خفيف الحركة فى أعمال النادى ....

وكان يتكلم ويتمهل ليلحس شفتيه ويجتر مضغ العلف التى ترد إلى فكيه فلم يمهله الخطيب الأول بعد جملته الأخيرة فوثب كالمنخوس وصاح وهو يرتعد من الغضب «لا ! لا ! لا ! وكلا وألف مرة كلا ومعاذ النعرة الجنسية أن نرضى بهذا الأقتراح . أفنقبل علينا زعيما لايزيد وزنه عن عشرة قناطير ؟؟ فماذا أبقينا إذن لهؤلاء الآدميين العجاف الضّال ؟؟ هذا وربى مايزرى بشرف العجول ويحط أسعارنا فى الأسواق حطة لاقائمة لنا بعدها يدالدهر »

قال محدثى : فماج النادى واضطراب ثم كثر الزئاط واللجب وكاد ينفض الجمع بلاطائل . لو لا أن تلافى الأمر ذلك العل الهرم فوقف متبسما وقال :

« ياإخوانى : ماأردت أن أغض من شرفكم بما اقترحت عليكم ، ولكن معنا هنا أبقاراً حلب الدهر أشطرها ، وأكل نير السواق فرائصها . فهى مازالت ترى أن السمان الفواره منا عرضة لظلم بنى آدم ، وأنه خير للنادى أن يكون زعيمه معتدل الضخامة لاباالجسيم الهائل ولابالنحيف الناحل . فان كان ذلك لايرضيكم ، فشأنكم

وماتريدون ، ودونكم وماترتضون فأنا لكم أيها الأخوان لموافقون »
هذا وبرك فهدأ الأضطراب وجالت رقاع الأنتخاب

* * *

جالت الرقاع فانتخبت العجول زعيما شنيع الوجه ، متفرج البطن ، منحوس الطلعة ، نكير الصوت ، ثم اختارت الرئيس فالوكيل فالناموس فالمفتش فالأمين – خمسة عجول تتفاوت فى الجسامة حسب تفاوتها فى الدرجة ، فاصطفت صفًا ، ثم أقلبت وأدبرت ، ثم دارت فى الندى تدبدب بأرجلها ، وتشول بأذيالها وتنفخ التراب بمناخرها ، ثم خورت خوارارج الفضاء ، وطبق الأرجاء ، وأصبح فى الدنيا منذ ذلك اليوم ناد للعجول ...

علم الاحترام

نعم علم الاحترام . ولماذا لايكون الأحترام علما ؟؟ ألا يشتمل كما تشتمل العلوم كلها على مبادىء وأصول ، وحقائق وفروض ؟؟ والعلوم على تعددها تبحث فى مقادير المواد والأشياء وفى نسب بعضها إلى بعض ، فان تجاوزتها إلى الناس لم ترتق إلى الموازنة بينهم ، ووضع قيمة صحيحة لكل منهم ،أما علم الأحترام الذى تريد أن نبتكره فيبحث فى أقدار الناس ومايتفاضلون به من عروض الحياة ومحاسن الشيم . فهو أشرف العلوم موضوعا ، وهو أخر مايتلقاه الطالب يتلق العلوم الأخرى فى الكتب ويحضرها على الأساتذة ، وهذا العلم لاكتاب له يحضر أبوابه وأقسامه ، ويضبط قواعده وإحكامه ، ولاأستاذ يمليه عليه طالبه فيريحه من جمع متفرقة ، إذ هو مفرق بين

أيدى الناس الرفيع منهم والوضيع ، والمحنكين منهم والأغرار ، ففى كل يد عجالة مبتورة ، ومع كل خريج وصية ناقصة . وإنما على الطالب أن يتتبع أجزاءه فى مظانه ، ويستعين عليه بأهله . فانه إن لم يفعل لم يكن قصاراه أن يجهل مايحترم به الناس ، بل جهل الناس مايحترمون به .

و لم أقصد بعلم الأحترام هذا الذى يصنعه بعضهم إذ تراه يتهيب ويوجل وهو داخل على من يحترمه كأنه يقتحم غابات أفريقية ، أو ينتفض ويشد عرى قبائه كأنه يقابل ثلوج المنطقة القطبية ، أو يهبط بيديه ثم يرفعهما كأنه يحثو التراب على رأسه ، أويرخيهما على صدره كالكلب يعالج الوقوف على رجليه . فهذا علم شائع قد حفظه كثير من الناس وأتقنوا . وليس بين الرجل وبين أن يحتقر نفسه فتنقاد له مبادئه وخواتيمه فى أقل قولك ألف باء .

ولكن قصدت العلم الذى من عرفه فقد عرف الأنسان ومن جهله فقد جهل كل شيء والذى لايعلمه إلا القليل ولايعمل به إلّا الأقل من ذلك القليل .

رأيت رجلا ذا قدم فى هندسة البناء راسخة ، وشهرة فى سائر فنون الرياضة ذائعة .وكنت أسمع أخاه يقول لو كان أخى فى أيام خوفو لما بنى الهرم الأكبر أحد سواه ، ولو حضر بابل يوم اندك صرحها لمادكه الله ، ولكن رأيته يطأطىء على يد صعلوك يسيل مخاطه على سباله ، ويجرى لعابه على لحيته فيقبلها ظهرًا لبطن ثم بطنا لظهر . فقلت هذا رجل يشيد الهيا كل إلا أنه يعبد الأصنام ، ويعرف نسب

الأعداد والأرقام ، ومقاييس الأجسام والأحكام ، ولكنه لايعرف الطول من العرض ، الخلف من القدام ، فى علم الاحترام .

هذا نصيب مهندس كبير من هذا العلم فما ظنك بالجهلة وماذا يبلغ أن يكون جهد السوقة السفلة ؟؟

تقول لك آداب السلوك آحترم من ينفعك ، وتقول لك آداب الصدق احترم من ينفع الناس . والقصد بين المذهبين أن أن تحترم من لايسعك احتقاره سواء فى سرك أوفى علانيتك . أما الناس فيحترمون من يخافون شره أكثر من احترامهم من يطلبون بره . وربما شاب احترامهم لأهل البر بعض الرياء وأما احترامهم للظلمة والطغاة فخالص لاشائبة للرياء فيه ، بل هو احترام لو أكرهوا أنفسهم على تركه لما استطاعوا .

ويارب فتى مبتدىء فى هذا العلم يخرج من كنف أبيه أو أستاذه ويمضى على رأسه حائرًا لايعلم من يحترم ولاكيف يحترمه ولا يعلم من يحتقر . ولا كيف يحتقره . وتراه يغالى باحترامه ويضن به على من لم يكن أمة فى رجل ، وعالمًا مجتمعًا فى واحد ويمسك بميزانه وقد وضع فى إحدى كفتيه صنجة النبوغ وضنجة الأخلاق وضنجة السمت[1] وصنجة الرآسة وصنجة الثروة وغيرها من الصنج التى يوزن بها الرجال ، ويذهب بالكفة الأخرى عله يجد الناس من يملأها ويثقل فيها . فما هى إلا دورة أو دورتان فى الطرق والبيوت والأسواق والمحافل حتى يؤوب وقد رفع كفته أكثر الصنج . يرفعها

(١) السمت الوقار وجمال الهيئة .

واحدة بعد واحدة ولايدع فى الكفة إلا صنجة أو اثنتين . وهما فى الغالب صنجة الرهبة وصنجة الطمع . ثم لايمضى غير يسير حتى يصبح وهو لايرجع فى ميزانه إلا أخف الناس وزنا عنده ، وحتى يكون بين ظاهره وباطنه فى الاحترام أبعد مما بين الأرض والسماء .

ولقد هالنى هذا الأمر وخفت منه على آداب المبتدئين فعن لى أن أدعو لجنة من العلماء إلى وضع كتاب واف صريح فى علم الاحترام يعصم الناس من الخلط والخبط فيه ويحجزهم عما يتخلله من الدهان والملق ... فاستقر رأيى على هذه الفكرة أيام . ولكننى رجعت إلى نفسى فقلت ومن ياترى يشرح للناس مسائل هذا الكتاب ؟؟ وأى أستاذ يرضى بأن يعلم الناس علما يحتقرونه به ؟؟ ألا يكون شأن الأساتذة فى هذا الكتاب كشأن الفقيه المنافق فى كتب الدين ؟؟ يلقن الناس منها مايدر عليه الرزق ، ويوطىء له الأعناق ، ويعمى عنه العيون ، ويتركهم من الدين القويم فى جهل مقيم ، وعن اليقين ، فى ضلال مبين ؟

فيئست من أن يكون للناس قسطاس صادق المعيار ، أمين على الأقدار . ورأيت أن أفضل ما يصنع العلماء أن يشتغلوا بعلومهم التى انقطعوا لها وأن يدعوا كلا ومايهتدى إليه فى علم الأحترام .

جمجمة الانسان

أذكر فيما قرأت من حكايات الفرس حكاية يروونها عن النبى عليه السلام . زعموا أنه أصحر[1] ذات يوم قائظ ومعه الصحابة فنزل فى ظل شجرة باسقة وإلى جانبها غدير ماء مصطفق رقراق يشوقك النظر إليه إلى الشرب منه . فلما اشتد أوار الظهيرة عطش النبى فقام إلى الغدير فتناول منه بجمع كفيه وشرب فوجد أبرد ماء وأعذبه ، وأصفى ورد وأطيبه ، ثم عطش مرة ثانية فعاد إليه فترشف منه رشفات روته من غلة العطش ولم تروه من عذوبة الماء وحلاوته . وذهب فى المرة الثالثة فوجد على الشاطىء إناء فأخذه وملأه من الغدير واجترع منه جرعة فاذا تلك العذوبة ملح زعاق ، وإذا صفاؤه الضاحك البشوش قذر لايطاق ، فمج الماء من فمه ونظر فى الأناء فألفاه نظيفًا ولم يتبين فيه ماعساه أن يكون منشأ هذه الملوحة والقذارة . فرفع بصره إلى السماء متعجبًا وكأنه يسأل الله عن سر هذه المعجزة وماذا أراد جلت قدرته بهذه العبرة ، ويقول كيف ينقلب الماء فى لحظة من طعم إلى طعم والغدير واحد . فما ارتد طرفه حتى أنطق الله الأناء فى يده فقال لاتعجب يابن الله فإن فى التراب الذى صنعت منه ذرة من جمجمة أنسان ، فهذه الذرة هى سبب هذا التغير ، ولو عللت يانبى الله من الماء براحتك كما نهلت[2] لما أنكرت من طعمه ما أنكرت .

---

(١) خرج إلى الصحراء .

(٢) نهل شرب للمرة الأولى وعلل شرب للمرة الثانية أو الثالثة .

ما أراد واضع هذه القصة أن يقول أن فى جمجمة الأنسان مرارة كمرارة الحنظل ترشح الحنظل فيما يخالطه من الأشياء ، ولكنه يقول فيما ورى به أن فى رؤوس الناس سما حاضرًا يرد الطيب خبيثًا ، ويحيل السائغ المرىء كريها مسقما ، وأن هذا الجانب المسموم من رؤوسهم يضيع عليهم كل مايدأبون له ويضبون عليه[1] ببقية جوانب رؤوسهم التى بها يعملون على رفاهة العيش ، ويرغبون فى هناوة البال .

إن هذا السم الذى فى رأس الأنسان يضنى صاحبه قبل أن يضنى البعيدين عنه ، وكلما كان الرأس قريبًا إليه وكثير الاشتغال به كان سمه افتك وأسرع فعلا . وهذا هو المشاهد المحقق . فأول من يلدغ الأنسان نفسه ثم عترته الأدنون ، ثم خلصاؤه المقربون ثم أهل وطنه المعاشرون ، ثم الأعداء الحاقدون ، ثم من لايعرفهم ولايعرفون من الناس : أبعدهم عنه أسلمهم ، وألزمهم له أظلمهم ولو تسنى لامرىء أن لايعيش إلا مع من لا يكترث لهم ولا وصلة بينه وبينهم ، لما عز على أحد أن يسبدل أقصى الناس عنه بألصقهم به . ولقد جعل السم فى ناب الأفعى وقاية لها فصار هو مدعاة هلاكها ، حتى أن مايقتل منها لأجله أضعاف ما ينجو بسببه ، وهكذا صار السم الآدمى مقتلا وسلاحًا لصاحبه ، وداء ودواءله . .

أنا لاأصدق إلا أن الأنسان أقدر على أشقاء نفسه وغيره منه على إسعاد نفسه وغيره . فلماذا هذا؟ ألأن السعادة ليست ضرورية

---

(١) يضب على الشيء بمعنى يشتد حرصه عليه .

للانسان كالشقاء ؟؟ نعم نحن أرغب فى السعادة ونحن أطلب لها . ويخيل إلينا أننا لانحيا بغيرها . ولكن لماذا لم نعط من وسائل السعادة ما أعطيناه من وسائل الشفاء ، وما معنى هذه الرغبة ياصاح ؟؟ هل تأتلف الرغبة والحاجة دائمًا ، أم هل ترتبط الكراهية بالاستغناء فى كل حين ؟؟ اللهم لا .

فيا أيها الظامىء الجاد وراء السراب : إن كان ظمؤك إلى السعادة وليس إلى شيىء آخر فلا ترج أن تشربها فى جمجمة إنسان ولا سيما الجديدة التى لم تعتق والمقفلة التى لم تكسر .. وإنك قد يحلو لك سلسبيل الحياة إذا تجرعت منه بكفيك ، ولكنك حيثما عمدت إلى إناء غير يدك ، أو أداة خارجة عن جسدك ، فهنالك لابد من ذرة من جمجمة إنسان ..

الصدى ونرجس

الصدى فى أساطير القدماء جنية من بنات الغاب والأودية ونرجس فتى سليل الهين من آلهة الماء . وكانت الصدى ذات منطق فصيح وحديث خلاب يستهوى السامع فينسيه نفسه ، ويلهيه عن شأنه ، فمرت بها (هيرا) حليلة (زوس) رب الأرباب فاستوقفتها بالحديث وعاقتها عما قدمت له . وكانت هيرا قادمة لتباغت (زوس) مع خليلها وحده فى مخدعها . وعلمت هيرا أنه لولا الصدى لما أفلت أولئك الضرائر منها فغضبت عليها وسلبتها قوة الحديث إلا أن تردد ماتسمعه ولاتزيد عليه .

أحبت الصدى نرجس فلم يفل بها ، وامتنع عليهاأن تبثه هيامها فذاب لحمها ، وبلى عظمها ، ولم يبق منها إلا نفس مصعد وصوت مردد . أما نرجس فقد نقمت عليه (نمسيس) بنت الليل والربة المنتصفة للظلوم من الظالم . نقمت عليه جفاءه وتيهه فأمهلته إلى أن أقبل على بعض العيون ووقف يعجب بما أبداه الماء من جماله فمسخته زهرة فى مكانه ، فهو لايبرح واقفًا على حافات العيون والجداول ناكس الطرف يطل على خياله فى الماء .

بهذا التمثيل الشعرى كان القدماء يفسرون عجائب الطبية ويشاركونها الأحساس فيبتهجون ويخالون أنها تضحك لهم ، ويحزنون ويحسبون أنها تبكى معهم . ويصاحبونها مصاحبة الأحياء للأحياء ، فكانت الطبيعة حياة كلها وليس فى زاوية من أخفى زواياها موضع للجمود .

وقد كانت هذه الأساطير مادة غزيرة للشعراء فأولعوا بالنظم فيها ، وعنى أحدهم بنظم قصص المبدولين والمتقمصين فسبكها أحسن سبك.. وهو (ببليوس أفيداس ناسو) شاعر لاتينى ولد قبل الميلاد ونفاه القيصر أوغسطس من رومة لافتتان الشعب الرومانى بغزله . كما نفى عمر بن عبد العزيز الفرزدق من المدينة لتهنكه ، وكما نهى المهدى بشارا عن النسيب فى أبان المدنية العباسية . وإليك مانظمه فى حكاية الصدى . قال :

«راحت الصدى تقفو أقدام نرجس ولايراها . وكلما لحقته تعاظمت برحاؤها ، وتحرقت أحشاؤها ، كهواء المشاعل يتبعها ولا

تدركه الأبصار ، ويكاد يضطرم وإن لم تمسه نار . وطالما همت بأن تفاتحه بتحية أو تستعطفه بكلمة . فكان يخونها الحياء ويستعصى عليها النداء .

«وضل نرجس عن رفاقه يوما فجعل يصيح أليس هنا أحد ؟ قالت الصدى ... هنا أحد ... وسكتت .

«فبهت نرجس وتلفت حوله ليرى مصدر الصوت ، ونادى هلم إلى ! فسمع الصدى تجيبه : هلم إلى ...

«وقال نرجس دعينا نلتق !! فسرعان ماسمع رجع كلامه بصوت مد فيه الحنان ، وترنمت به الشعاب والغيران . ووثبت إليه تضمه وتعانقه فأجفل منها ومضى وهو يقول : أعزبى عنى !! لاكنت ولا كان قلبى إن جرى بيننا الحب ...

«ثم مازالت ينخر فى قلبها الداء الدفين ، ويأكل منها الكمد والأنين ، حتى عادت أرق من الهواء . ويراها النحول إلا خفقة نداء ، لاتلبث أن يعبث بها الفضاء» .

اللؤم المكتسب

اللؤم ضربان : لؤم موروث ولؤم مكتسب . فأما اللؤم الموروث فذلك الذى لاحيلة لصاحبه فيه ولاحيلة لمخلوق فى صاحبة ، وقد يتمنى اللئيم التطهر من وصمته والبراءة من شبهته ، وهيهات ذلك .

وأما اللؤم المكتسب فلؤم يضطر إليه بعض الاشقياء اضطرارا . لؤم رجل سالم الناس فحاربوه ، وحاربهم فواربوه ، وبسط إليهم راحة

الأمان فضربوه عليها ، وصرح لهم عن سويداء قلبه فوخزوه فيه ، فتعلم من الناس أن يقف منهم موقف المحارب الحذر . يراوغهم فى أمره ويكتم عنهم مواطن قوته ، ثم يفتش عن مواطن ضعفهم ويتجسس على المغامز فى صفوفهم . أفهموه أن ماهم فيه حرب لاسلم ، ومخاتلة لا مجاملة ، وغش لانصيحة . فعمد إلى نفسه أولاًفاخفاها وراء سور من الرياء كما يخفى المقاتل نفسه وعدته وراء سور حصنه ثم عمد إلى مقاتليه فدبر كيف يصرعهم ، ومن أين يتدرهم . إذا ابتسم له مبتسم تفقد قلبه هل فيه مطعن مكشوف أو ثلمة مطروقة ؟؟ وتعهد جوارحه لئلا تضطرب عند المجالدة أو تؤخذ على غرة ، ويعود فيرد تلك الابتسامة بمثلها ويجزى على ابتسام بابتسام . وإذا بكى بين يديه باك أسرع إلى قلبه فأضفى عليه الدرع واجتهد أن تكون أصفق دروعه وأمتنها لئلا يكون ذلك البكاء خدعة من خدع الحرب . فإذا تثبت من قلبه وتهيأ لمقابلة العدوان بمثله رجع إلى ذلك الباكى فإما بطش به أوكان أكثر من لؤما فيصافحه ولكن بعد أن يجرده من كل سلاحه وبعد أن يقلم أظفاره وينزع شكته ويتركه ولو شاء أن يخدش نفسه فضلاً عن أن يخدشه لما استطاع . فهو بعد ذلك أسيره الذى يطيع اشاراته ويسخره فى قضاء حاجاته لاصنيعته الذى يحسن إليه ويرفه ينه . وقديمًا سمى الناس المحسن آسرا والمحسن إليه أسيرا ، وهم فى التسمية ماتعدوا الحقيقة قيد انملة إلى المجاز .

واللؤم المكتسب هو لؤم من صدق الناس فكذبوه ووفى لهم فخونوه ، وعمل لخيرهم فأضروه ، واحب أن يبادلهم النفع فلم

يقنعوا بما دون استنزافه وامتصاصه ولم يرضخوا له إلا عن أيسر مالديهم وأهونه عليهم . ويرضخوا له عن هذا اليسير الهين وهم قادرون على جحده والمماطلة فيه . ورآهم يصدقون من يكذبهم ويأتمنون من يخونهم ويخدمون من يؤذيهم ولا يشترطون عليه فى نظير هذا التجاوز العظيم فى هذه الصفقة الربيحة ، إلا أن يكون خداعا ماكرا ودساسا لئيما . فلم أن هاته السوق أربح من تلك وأسهل فى الممارسة . ورأى أن الناس كما يزدرون الرذيلة التى لايحميها أحد . كذلك يزدرون الفضيلة التى لايحميها أحد . فعلم إنهم ماأحبوا الفضيلة ولا كرهوا الرذيلة ولكنهم يخافون كلا منها حين يكون مخيفا ويزدرونه حين يكون عزلا ليس عنده مايخافون . ووجد الفضيلة أوعر مسلكا لأنها غريبة والرزية ممهدة الطريق لأنها كثيرة الأمثال والأشباه فتنكب الأوعر إلى الأسهل وألقى بدلوه فى الدلاء .

رأى مارأى وعلم ماعلم ثم وقف وقفة يحاسب نفسه فأيقن أنه لن يصلح الناس وأنه بين أن يعتزلهم إذا قدر فيكون دينه له ودينهم لهم . أو يصحبهم فيعاملهم بالسكة[1] التى يقبلونها مادامت كل سكة غيرها زائفة فى نظرهم . وما دام الخيرون فى هذه الأرض كالجن لايظهرون لكل انسان .

وأن للؤماء عادة أن لايبوحون بأسباب لؤمهم ولايحاولون التنصل مما يرمون به لأن الناس لايصدقون ولافائدة لهم من تصديقهم إياهم ، فلذلك يتهمهم الناس بالحق وبالباطل ويقبلون فيهم كل مايقال عنهم .

---

(١) السكة هى النقود .

ومتى رأى الناس رجلاً يسيء الأعتقاد بهم جميعًا لم يسمعوا له قولا فى واحد منهم وقالوا ذاك ديدنه فى التبرم وتلك شنشنة له فى التجنى ، فيصدقون شكوى الشاكين منه ولا يصدقون شكواه فى أحد . ويأبون أن ينصفوه وإن كان مغبونًا فيتسع بينه وبينهم مجال التهم وتقطع بينهم قلة الأنصاف :

ولم تزل قلة الأنصاف قاطعة
بين الرجال وإن كانوا ذوى رحم

وما كان ليئتم لئيما إلا بعد يأس من إنصاف الناس ويقين من عسفهم فى القضاء واغترارهم بظواهر الأحوال .

ولقد سمعت يومًا جماعة يتناشون عرض رجل لم أعلم عليه من سوء فوصموه بنهاية اللؤم ورجموه بأشنع الخبث . وكان أطولهم لسانًا وأفحشهم طعنافتى كان يدعى أنه ساعده فخذله ، وأحسن إليه فقابل إحسانه بالأساءة . فلقيت ذلك الرجل فسألته فقال نعم . أعطانى قطعة من السم صغيرة فى قطعة من الحلوى كبيرة ، وهو يطالبنى الآن بثمن تلك الحلوى ويمن على إن وهبنى السم بلا ثمن . وأخذ يقص على من نوادر إساءة ذلك الفتى فى الأحسان ، وغلظته فى الملاطفة ، وتقطيبه فى البشاشة ، مالو أنه قضى العمر فى مناوأته والكيد له يكن معتديا عليه .

قلت : فلم لاتفشى الحقيقة . وأقل مافيها أن لايفترى عليك اناس بما ليس فيك أو يعيبوك بعيب أعدائك ؟؟

قال : سواء على أيعيبنى الناس أم يشكروننى . بل أحب إلى أن

يعيبونى ويحذروا جانبى من أن يحسنوا الظن ويخدعونى وإن المشقة التى احتملها فى أقناعهم ببراءتى لأشد كثيرًا من الضرر الذى يصيبنى من اعتقادهم فى اللؤم . إن كان فيه ضرر .

* * *

أنا لاألوم هذا اللئيم الذى اقتبس دروس اللؤم من العالم كله وكيف وهو يقتبس من أستاذ يلوح له بالعصا أنى ذهب . يلوح له بها عند مشيه وقعوده وعند جده وونائه وعند أكله ونومه وعند مصادقته ومعاداته . ويوشك أن ينهال عليه بها فيقتله كلما سها عن درس أو هم بأن يتلمذ لأستاذ غيره .

وأجد من يلوم هذا اللئيم كمن جلس على مائدته بين زوجه وولده ، وبين يديه صحاف الطعام ، وأمامه الأتباع والخدام . فجعل يلوم الصياد الذى خرج يبحث عن صيده فى الآجام الموحشة فتقلد سلاحه ومشى ينظر كلما نقل قدمه إلى أمامه وإلى ورائه ، وعن يمينه وعن شماله ، وهو من الحيطة والتربص يكاد ينظر بكل عضو فيه أو كأنه من التمهل التَّلف يدوس على الشوك ويخطو على جحور الأراقم[1] يخاف أن هو غفل أن يفوته رزقه أو يثب عليه سبع فيفترسه . فيلوم ذلك الصياد على احتراسه وارتيابه ويطول عليه بأمنه ودعته ، وما كان هو أكثر منه أمنًا لأنه أكرم قلبًا ولا كان الصياد أكثر ارتيابًا لأنه ألأم خِيما[2] وأردأ عنصرًا .

(١) الأراقم هى الحيات .

(٢) الخيم الطبيعة .

أنا لا ألوم هذا اللئيم على أننى لأ أحب أن يكثر أمثاله فى العالم . وعذرى إياه إن الذنب فى لؤمه على قومه ، ولكن البغيض المرذول هو اللئيم المجبول فانه لئيم أحسن الناس إليه أم أساءوا . ولادته جريمة ، وموته – وليس سوى موته – تكفير لتلك الجريمة .

البخيــل

كان لىِ من أعرف من الناس رجل لا يعرف الناس أبخل منه . كان هذا الرجل إذا اشتهت نفسه الشىء مما تشتهيه الأنفس من طيبات المأكل والملبس أخرج القرش من كيسه فنظر إليه نظرة العاشق المدنف إلى معشوقه ثم رده إلى الكيس وقال : هذا القرش لو أضيف إليه تسعة وتسعون مثله لصار جنيها ، والجنيه بعد الجنيه يجلب الثروة العريضة ويجمع المال الجِير [1] وهبنى تهاونت بانفاقه اليوم وسمحت نفسى به فلا آمن أن تسخو بغيره غدًا . فانما القروش كلها واحدة فى القيمة وليس قرش بأغلى من قرش . والشهوات حاضرة فى كل وقت ، فكأننى انفقت اليوم بانفاق هذا القرش جميع ما سوف أملكه وأدخره من المال ، وفتحت على نفسى باب الفاقة الدائمة والعوز المستمر مطاوعة لشهوة حمقاء ، إن أنا وقمتها [2] الآن ماتت واسترحت منها وإن آتيتها على ما تدعونى إليه كل ساعة كنت كمن يرمى الوقود فى النار ليخمدها ، وكنت كمن يشتهى الفقر ويتمنى الإعدام وتلك والله الحماقة بعينها .

(١) مال أجير أى كثير جدا .

(٢) ردعتها .

وكان إذا تم عنده الجنيه على هذه الكيفية أسقطه فى صندوق ثقب له ثقبًا فى غطائه و لم يجعل له مفتاحًا لئلا يتعود الفتح والإقفال ، ويجرأ على ذلك الذخر بالكشف والإبتذال ، وخوفا من أن تراوده نفسه لفرط شغفه بالذهب على مس جنيه من تلك الجنيهات فيجر المس إلى التحريك ويجر التحريك إلى الأخذ فالاخراج فالصرف وهناك الطامة العظمى والداهية الشؤمى ، ويقول إن سلّما أنت واقف على قمته حرى أن تصل يوما إلى أسفله . وما لك أن لا تغلق الشر من بابه وترقع الفتق من أوله وتتلافى الأمر فى بدايته قبل أن تتعذر عليك نهايته . وكان يرى الفقر من بعيد فيظنه أدنى إليه من حبل الوريد . فالفقر عنده محيط بكل مكان ، شامل لكل زمان ، ومادام فى الأرض درهم فهو فقير إليه وما دام فقيرا فالاطمئنان محال عليه ، ولقد ألفنا أن نسمى البخلاء عبيد الذهب وكان الأصوب أن نسميهم عبيد الفقر لأنهم يضحون الذهب للفقر . وهم يحبون الفقر ويخشونه . يحبونه فيعيشون عيشة المعدمين والبؤساء ، مع تمكنهم من الثراء . ويخشونه فيتقونه ، وعندهم له من كل دينار وقاء .

فإذا سقط الجنيه فى ذلك الصندوق .. لابل فى تلك الحفرة كانت تلك السقطة آخر عهده بالهواء والنور ، وآخر عهده بالهبات والبيوع ، وآخر عهده بالأنامل والكفوف ، وهوى من ذلك الصندوق فى منجم كالمنجم الذى كان فيه . وشتان بين المهد واللحد . ومات موته لا تنشره منها إلا يد الوارث إن شاء الله وقد فعل .

ولو أتيح لتلك الجنيهات أن تتحادث فى ذلك السجن المطبق عن ماضيها كما يفعل السجناء . إذن لسمعت من أحاديثها العجب العجاب بين جنيه رحالة جواب ، يتنقل بك من السويد إلى الكاب ، وينبئوك عن الأعاجم تارة وتارة عن الإعراب وجنيه فرار غدار ، ما سلم بالليل إلا ودع بالنهار ، وجنيه نشأ فى الحانات والمواخير ، فاسترق رنته من رنات الكؤوس والقوارير . وجنيه عاشر الأبرياء والجناة ، ورافق النساك والغواة ، وجاور المعوزين والسراة ، ومر بالمساكين والعتاة ، وطفر من الأصدقاء إلى الأصدقاء ، ومن العداة إلى العداة . وكلها تشهد شهادة لا بهتان فيها أن مالكها الأخير أقدر من قنص الدينار ، من الأبرار والفجار ، وأخبر من صاد النضار ، من الشطار والأحبار وأول من راض هذا المعدن السيار ، على السكينة والقرار .

ولو أتيح لك أن تشهد ذلك البخيل وقد مثل عند صندوقه وألجأته الضرورة إلى الاستمداد منه — وناهيك بها من ضرورة — إذن لحسبت أنك تشهد فى جنح الليل الأعكر سارقًا ينبش القبور عن أكفانها ، وقد تملكه الهلع من حراسها وسكانها ، أو لحسبت أنك تشهد كاهنًا متحنثًا يقوم عند صندوق النذور يهم بأن يمد يده إليه فيتحرج من أن يستحل ودائعه لئلا يحل عليه قصاص الله ويحيق به غضبه . فان الحت عليه الحاجة أقسم أن لن ينام ولن يهدأ أو يرد إلى الصندوق ما استعاره منه . وقد لا تجد بين ألف كاهن كاهنًا واحدًا يقسم هذا القسم ويبر به ولكنك لا تجد بين ألف بخيل بخيلا واحدًا يحنث فى هذه اليمين .

ففى وقفة من تلكم الوقفات اقترض البخيل من صندوقه جنيها وآلى بالطلاق من عرسه أن لا يدخل البيت إلا والجنيه معه . وذهب إلى السوق فكدح فيها ما كدح واحتال حتى استرجع الجنيه نصفًا ذهبًا والنصف الباقى قطعًا فضية . وكانت تلك عادته إذا أبدل الفضة بالذهب . كى تكون كل قطعة صحيحة صمامًا حديديًا يحبس فيها تحتويه من القطع الصغيرة أن تتناثر وتتسرب إلى إحداها نزعات الجود ووساوس النفس الأمارة بالجميل والخبيث يسىء الظن بنفسه ويتهمها بالسخاء عن القليل الطفيف مداعبةً لها وإدلالا عليها . وإلّا فقد وثق وثوق المؤمن بإيمانه أنه لو انثالت[1] عليه نقود المشرقين والمغربين دراهم ودوانق وسحاتيت لما سولت له نفسه أن ينفق سحتوتًا منها فى غير ما يدفع التلف جوعًا والهلاك عريًا . فما تمهل حين صار الجنيه فى يده إلا ريث أن أهرع إلى الصيرفى فناوله إياه مفرقا وقال أعطنى به جنيهًا ذهبًا .

قال له الصيرفى : هات خمسة ملليمات

قال البخيل : وعلام هذه الملليمات الخمسة : أنك تأخذ هذا الجعل من الناس على أن تنقدهم الفضة بدل الذهب ، وأنا أعطيك فضة وأطلب ذهبًا ، أفلا تحمد الله على أننى صفحت لك عن حقى وجئتك ساعيًا إلى مكانك ؟؟

فما زاد الصيرفى على وكزه فى صدره وكزة قذفت به إلى الجانب الآخر من الطريق . فما تململ الرجل ولا تأفف . بل وقف حيث

(١) انهالت .

قذفت به الوكزة صامتًا . والصيرفى لا يشك فى أنه ينتظر أن يمر الشرطى فيستعديه عليه . فمر شرطى وثان وثالث لا يدعوهم ولا يبرح مكانه . والناس يظنون أنه يحدث نفسه بالإنقضاض على الصيرفى فيوسعه ضربا ولكمًا فيخطئونه ويلومونه وينصحون له بأن يعتذر إليه ويسترضيه وبينا هو كذلك أقبل على الصيرفى شيخ ريفى ، فكذب البخيل كل ظن وعاجل الشيخ فكان أسبق من يده إلى جيبه وصاح به : رويدك ياهذا إنك تريد أن تبدل جنيهًا وهذا اليهودى يتقاضاك خمسة ملليمات وأنا أقنع منك بمليمين ، فهاك الفضة وهات الذهب . والتفت إلى الصيرفى فقال بارك الله فيك فقد قيضت لنا رزقًا كنا فى غفلة عنه ولا يزال هذا دأبنا كلما اجتمع جنيه عندنا ؟ ثم ولى والصيرفى يكاد ينشق عن جلده من الغيظ والناس يضحكون .

وكأنى بك أيها القارىء تظن أن الرجل آلى بالطلاق وحرص على أن لايمين فيه وفاءً لزوجه وضنًا بذات فراشه واحتفاظًا بأم بنيه . فإياك أن تظلم الرجل بهذا الظن ، فان الإحتفاظ والضن بشىء غير المال ضعف يربأ بنفسه عنه . ولكنه تحرى أفدح الإيمان كفارة وأصعبها كلفة فرأى أن كفارة الحلف بالله سهلة وربما كان فى الصيام من الإقتصاد ما يغريه بالحنث كلما أقسم بالله . فاختار يمين الطلاق يهدد نفسه به ويخوفها من مؤخر الصداق ومؤونة الأولاد ومصاريف القضايا ، ثم لابد له من زوجة تكفيه نفقة الخادم وشراء الطعام من السوق . وهذه الزوجة لابد لها من مهر قل أو كثر ، دع عنك الأعراس وما تستدعيه عن الخروج عن العادة فى الإنفاق ليلة أو ليلتين . فإذا آلى بالطلاق ذكر كل ذلك وأكثر منه فكان قيدًا لا

يستطيع منه فكاكا . ولا يفوته مع هذا أن يصانع نفسه بأنه من القابضين على دينهم الذين يجتنبون حدود الله ولا يلعبون بيمين كيمين الطلاق ، والحقيقة أنه لا يجتنب حدود الله لأن اجتنابها يوافق هواه . ولو كلفه خوف الطلاق معشار ما يصون من ماله لجار عن كل حد لله وللخلق . وعلى أنه لم يضطر يومًا إلى امتحان دينه و لم يقف بين ارتضاء الطلاق وجرائره وانتهاك حدود الله وأوامره . لأنه لم يكذب على صندوقه قط . فإذا استعار منه فى الصباح سدد له الحساب فى المساء .

ومرض هذا البخيل مرض الموت فجزع جزعًا شديدًا ، وكان جزعه لأنه سيموت عن أقل من عشرة آلاف جنيه كاملة وكان ذلك كل أربه من الحياة . فاستحضر الطبيب بعد أن نهكته العلة ودب السقم فى أوصاله وعظامه ، فأمره بأن يتعاطى دواء وأن يقصر طعامه على لحم الطيور . وكان صاحبنا على مذهب النباتيين اقتصادا لافلسفة . فتملص يحايل الداء ويتملق الطبيب عسى أن يعدل على وصفته ، والداء يأبى إلا لحوم الطير والطبيب مصر على رأيه . ولما كان أربه فى العيش لم ينته والعشرة الآلاف لم تكمل فقد رضى أهون الشرين وأصاخ لقول الطبيب وصار يأكل كما أمره وهو يتلهف ويتغصص ويتبع كل لقمة يريدها بعملية حساب وهل أصعب فى الهضم من الحساب وأثقل على المعدة من الأرقام الصماء ؟؟ و لم يزل يقول بعد كل أكلة : الله الله على الصحة !! لو كنت الآن صحيحًا أما كانت تكفينى أكلة بدرهم !! فلم يسعفه الدواء و لم يمرأه الغذاء . وما ذاك إلا لأن الطبيب داواه بالطلب الذى يُداوى به الناس ووصف

له ما كان يصفه لكل مريض مصاب بمثل مرضه ، ونسى أنه يداوى دائين لاداء واحدًا ، وفاته أن دائين أحدهما مزمن والآخر طارىء لا يصلحان بفرد دواء ، ولو سمعه كيف كان يأسف على الصحة ولماذا كان يأسف عليها لعلم أن صحة هذه البنية غير صحة سائر البنى وأن لها مرضًا غير أمراضها وأن الغذاء الذى ظن أنه يشفيه ويقويه قد حز من بدنه وأضاف مرضًا على مرضه . وقد مات المسكين بدائه ذاك ، وما أحسبه ندم على شيء وهو يفارق الدنيا ندمه على تلك الدراهم التى أطاع فيها الطبيب جزافا . وماذا عليه لو قد عصاه فلم يفقد سوى حياته ؟؟ !!

ولهذا البخيل نوادر عديدة يذكرها معارفه فكان لا ينقضى له يوم إلا على نادرة طريفة مع بائع أو زميل أو شريك أو مدين وكنت أستظرفه فأتودد إليه وأشيعه على مذهبه فلا اقتصد فى اطراء الإقتصاد ولا أبخل بكلمة فى مدح البخل وإذا فاوضته فى الأدب أو طالعت معه فى الكتب لم يكن أحقر على لسانى من أسماء هرم بن سنان وحاتم طيء وكعب بن مامة ومعن بن زائدة وأبى دلف وغيرهم من أجواد العرب فأشنع بهم وأسأل الله السلامة من مثل مصيبتهم فى عقولهم وأموالهم وأقول له ما أجدر مادار بتمثال من الذهب ، فيقول أى وأبى ولولا ما فى ذلك من الإسراف ، ولشد ما كان يتهلل وجهه حين أتلو عليه نكبة البرامكة فيقول حيا الله الرشيد ما أحكمه وأحزمه ، وقبحهم الله ما أخرقهم وأحمقهم . بادوا وخلفوا وراءهم للناس مثلا سيئًا وقدوة ذميمة . وكانت له فى أسباب نكبتهم فلسفة خاصة لم يفتح الله بها على أحد قبله . يقول لك لا تصدق ما

يتمشدق به كذبة المؤرخين عن أسباب نكبة البرامكة . فوالله ما نكبهم ولا قتلهم إلا الإسراف والتبذير . أسرفوا فى البذخ وبذروا أموالهم فى الصلات فحسدهم الموصول وسخط عليهم المحروم ، فترصدت لهم العيون وتوغرت عليهم الصدور واستعظم الرشيد عليهم ماهم فيه فمثل بهم ذلك التمثيل وفجعهم فى أرواحهم وأموالهم وآمالهم فلم يغن عنهم صنائعهم وذووهم . ولو أنهم بخلوا لنامت عنهم الأنظار وخرست عنهم الأفواه ، لأن من نعم الله على البخلاء أنه يجمع لهم بين مزيتى الغنى والفقر ، فلهم من الغنى المال الكثير ولهم من الفقر الأمان من حسد الحاسدين . ولهم من الغنى القدرة على ما يبتغون ومن الفقر القناعة بيسير مايأكلون ويلبسون . وهما مزيتان لا يجمعهما الله إلا لمن رضى عنه من عباده .

بيد أننى فى صحبتى له كنت لا أستطيع ساعةً أن أفكر بأننى أصاحب إنسانًا له علىّ مثل الذى لى عليه ، وكنت أحمل نفسى على أن تصدق أنه من البشر كما تراه عينى فلا تذعن . وكيف وهى لاتحس بأدنى اختلاف بين ملاطفتى إياه وملاطفتى الكلبَ أو القرد الأليف ليأنس بى ولا ينفر منى . ولقد ضل والله من يتألف الكلابَ والقردة ويلهو برؤية الحيوانات العجيبة وعنده البخلاء يضمهم وإياه جنس واحد ومدينة واحدة فلا يتألفهم ولا يخف إلى رؤيتهم . أليس لو جاءك رجل فأخبرك بأن فى مدينة كذا دابة تموت من الطوى [1] وبين يديها الطعام الفاخر ويفرش لها المهاد الوثير فتجفوه إلى الأرض

(١) الجوع .

الخشنة وتطلق فى الفضاء الفسيح فتزمجر وتئن ، وتسجن فى قفص الضيق فتطرب وتطمئن ، وقيل لك إن هذه الدابة منفردة بهذه الأطوار بين بنات جنسها . أما كنت تبادر إلى تلك المدينة أو تتمنى أن تساق إليك تلك الدابة ؟ فالبخيل هو تلك الدابة الغريبة فى تكوينها الشاذة فى أطوارها ، التى تعد من الناس وليست منهم وتجانسهم فى الصورة والقوام ولا تشاكلهم .

إن الناس يعرفون البخل بأنه الحب المفرط للمال . وهذا تعريف ناقص من جميع أطرافه . وهل العلاقة بين البخل والمال إلا كالعلاقة السطحية بين العلم والأوراق ، وبين الشجاعة والسيف ، وبين الزمن والساعات ؟؟ وقد وجد البخل قبل أن تحتجن الأموال وتسك النقود كما سلف العلم قبل أن تصنع الأوراق وتقدمت الشجاعة قبل أن تطبع السيوف ودار الفلك قبل أن تخترع الساعات . ولو أصبحت الدنيا قد انقرضت منها الأموال وفنى من أيدى الناس الذهب والفضة لما قضى ذلك بفناء البخل من قلوب البخلاء لما قدمنا من أن البخل شيء بمعزل عن المال .

وإنما البخل عاهة تحجب الفكر وتفسد الطبع وتفرد المرء عن الفطرة العامة بين بنى جنسه بفطرة منكوسة عوجاء . وتذره خلقًا عجيبًا كلُّ حظه من الحياة أن يحرم نفسه حظوظ الحياة . يستغرق الوسع فى طلب الوسيلة ثم لاهو يقنع بالوسيلة ولا هو يطلب بها الغاية . وليس البخل عاهة واحدة بل هو جملة عاهات ممثلة فى هذه العاهة . فهو مزيج من الجبن الدنىء الذى يصور للمرء الخطر

المستحيل كأنه قضاء حتم لامرد له ، ومن الخسة التى يتساوى عند صاحبها الفخر والعيب . وتلحق عنده مراغة الهوان بمقاوم السؤدد ، ومن البلادة التى تميت فيه كل أريحية فلا تهتز فى نفسه أمنية أو عاطفة تقوى على كسر قيود شحه وجبنه ، وقد ظهرت هذه الخلال للناس قبل أن يتمدينوا بآلاف السنين ومقتوها فمقتوا البخل متفرقًا قبل أن يمقتوه مجتمعًا . وغاية الفرق بيننا وبينهم أنهم كانوا يستضعفون من تكون فيه خلة من هذه الخلال فينبذونه عنهم ويهضمون حقه ويدوسون حرمته ولربما طلوا دمه وتبرأ منه ولاة ثأره . وأما فى مدنيتنا هذه التى وضعت سنة المال موضع سنة الحياة فقد صار البخيل فيها يحل ويبرم ، ويؤخر ويقدم ، ويحلل ويحرم ، ويستشفع إليها بيدٍ فيها المال ويدٍ فيها جبنه وخسته وبلادته فتقبل منه هذه لتلك . وأنها لعمرى لمن الخصال التى انحطت بها المدنية عن الهمجية – وما هى بالقليلة فكم خصلة فى المدنية يستحب المدنى الهمجية لأجلها ويأنف الهمجى بحق أن يتصف بها ؟؟

اللغات والتعبير

لولا أنّ الناس من أصل واحد فى الخلق ، ومن لحمة قريبة فى النسب ، بحيث أن ما يعرو أحدهم يعروهم جميعًا وما يصدق على جميعهم يصدق على كل واحد منهم ، لما أجدَت عنهم اللغات فى كتابة أو كلام ، وعتُقْلِتْ ألسنتهم عن كل فهم وإفهام .

ولو كان التقارب بينهم تامًا ، والشبه فى السن والميل والسليقة محكما لما افتقروا إلى اللغة ، ولكان يستشعر أحدهم فى روعة ما يقوم فى روع الآخر من غير حاجة إلى الشرح والبيان .

ولا ريب أن الناس يتفاهمون ببواطنهم أكثر مما يتفاهمون بظواهرهم ، وإن لاح لنا أن الأمر خلاف ذلك لطول عهدنا باستخدام اللغة فى الإعراب عن مرادنا . فما اللسان إلا موضح ومفسر لما عساه أن ينْبَهم على السامع من مجمل سر المتكلم ومما قد تحتويه أفكاره ولايمكن أن تعبر عنه تمام التعبير وجداناته ، أما حالته النفسية فهى أفصح من أن يفصح عنها اللسان بل أفصح من أن يخفيها إذا حاول إخفاءها .

وما كان الإنسان قبل آلاف الحقب أيامَ هو بعدُ بهيم سارح فى مراتع العجمة ، يعول فيما يراه من رضى صاحبه أو غضبه ، ومن صدقه أو مكره ، ومن أمانته أو خيانته ، إلاعلى ما يتفرس فى أسارير وجهه وغمزات طرفه وحركات أعضائه . وكان إذا كلمه لم يكديثق

بكلامه ويأمن اغتياله أو[١] يطابقَ مدلولُ أقواله ما وقرفى قلبه من مغزى اشاراته ومعنى ملامحه ، فهو يأتمن السليقة ويرتاب فى اللسان . وهذا سبب إعجاب الناس بالاشعار والخطب والكتب التى مصدرها السليقة وامترائهم فيما تعبث به يد الصنعة . لأنهم يقرأون نتاج السليقة فينفذ إلى سلائقهم ويصيب مواقعه منها ويحرك من القارىء مثل ما حرك من نفس الشاعر أو الكاتب فيعلمون أنه صدقهم وحسر لهم عن سريرته فيركنون إليه .

ويقرأون نتاج الصنعة فلا يجاوز ألسنتهم وكأنهم يقرأونه وهم ينظرون الشاعر أو الكاتب وهو يتعمد للظهور لهم بغير مظهره ، ويتنقب لهم بنقاب يخفى وجهه أو يبديه فى غير صورته ، أو يرائيهم بتجميل هيئته وتدميم طلعته فيخالجهم الشك فيها ويعرضون عنه . إلا إذا كان القارىء من الغرارة بحيث يصدق كل ما يقال أو من الجهل بحيث لا يميز بين السليقة والصنعة ، فانه يقبل حينئذ كل قول على علاته . فلا تمنعه المماذقة عن المصادقة ، وتنكسر خزانة نفسه بمبرد اللص أسهل مما تنفتح لصاحب المال .

ولقد والله أحسن جولد سمث إذ يقول فى إحدى رواياته : «لسنا نستعمل الكلام للإفصاح عن حاجاتنا بقدر مانستعمله لمداراتها» . فقد طمس الكلام إلى اليوم من الحقائق أضعاف ما فند من الأكاذيب . وضلل من المهتدين أكثر مما هدى من الضالين ، وإنك ربما تقترب الرجل فتطلع من سيماه على ما يريبك فتتوجس منه فإذا

---

(١) أو هنا بمعنى حتى .

سألته وكان من ذوى اللباقة والبراعة فى المراء والمخادعة لبّس عليك الحقيقة وأزال الريب من نفسك ، فينصحك لسان حاله ويغشك لسان مقاله . وكان آمن لك لوانك صدقته ساكتا و لم تصدقه ناطقا .

هذا فيما يملك الناس أن يبينوه أو يُكِنوه . وإن هناك أفكارًا تلتوى على اللغات وتشمس عن التقيد بالكلمات . فما فضل الناطق فى هذه الأفكار على الأعجم ؟؟ وما زيادة الفصيح على الأبكم ؟؟ لا فضل ولا زيادة . ومن الأفكار ما هو أعوض من أن يعُبرّ عنه ولكنه أقوى من أن يكتم . السكوت عنها ممض والتعبير عنها ممتنع . لم يتغلغل الكلام إلى أعماقها فيخرجها ، وليست هى بالتفاهة الضئيلة فتدفنها فى مهدها وتدرجها ، وقد خصت ولم تعم فلم يكن لها حظ من اللغات العامة ، وتفرقت و لم وتجتمع فليس بين أصحابها المتفرقين لغة متبادلة . فاعلم إنه لا يريحك من هذه الأفكار إلا سكوت كالخطاب . وذلك أن تجلولوا على البعدِ مَن يعانى مثل هذه الأفكار فيحيط بكتابك من عنوانك ، وتلهمه الكلمة العاجلة ما تضيق به الفصول المذيلة ، ويسبح معك برهة فى عالم لا السنة فيها ولا آذان ..... !!

يتحادث الرجلان وبينهما تنافر فى الأمانى والأذواق فيفرغ أحدهما جعبة بلاغته ، ويمتهى غرار حجته ، ويستنفذ أفانين حيلته ، ويحسب أنه أقنع جليسه واستولى على لبه ثم ينهض هذان الجليسان وأن بينهما من البعد لما هو أبعد مما بين الميت ومناديه ، والنجم ورائيه ويجلس غيرهما وقد توافيا على أمنية ، وتمازجا فى الطوية ، فيقضيان الساعات لا ينبسان إلا بالكلمة بعد الكلمة ثم ينهضان وقد نقل كلاهما إلى

أخيه خلاصة نفسه وطبع صورته فى صدره . ومن منا من لم يشاهد الحالتين فتبين له لغة الصمت أحيانا مقدار حداثه لغات الكلام .

وأنى لأصغر شأن هذه العلوم والآداب القائمة كلها على تفاهم اللغات كلما تأملت فرأيت الأشياء الكثيرة التى تقوم بوجدانات الإنسان ولا يحس بها ، والتى يحس بها ولا يعبر عنها ، والتى يعبر عنها ولا تصل برمتها إلى عقل سامعها ، فيتأكد لى أن الناس فى حاجة إلى تفاهم أرقى من هذا التفاهم اللغوى . ولعل هذا النقص هو علة كثير من المشاكل التى تقع بينهم أمما وأفرادا وتزول لو كان التفاهم بينهم كاملا .

فليتخذ الناس اللغات رموزا وإشارات تنوب عن المعانى لمن يعرفها ولا تمثلها لمن لا يعهدها أو يأنس بها . وليعلموا إنهم ما داموا لا يقولون كل ما يريدون أن يقولوه فهم خرس وإن نطقوا . وإنما البليغ المبين من الناس رجل يجيد الاشارة بلسانه أو يراعه . ولن تعنيه هذه الإجادة عن أن يكون سامعه ممرنا على التنجيم والتخمين . وأما من اخطأه هذا المران ، فسيان عند الإشارة باللسان ، والإشارة بالبنان !!

قوة الارادة

خطر لى أن أبتدع فى التجارة بدعة حسنة فاخترت أن أتاجر بالأخلاف النافعة للمصريين . فاقتديت بأولى الخبرة والنظر البعيد من التجار إذا عزموا الاتجار بسلعة من السلع فى بلد من البلدان ، يتوخون حاجة السوق ويستقصون عادات أهل البلد ثم يقدمون على بصيرة من عملهم وأمل وطيد فى الزواج والنجاح فتوخيت حاجة السوق فى مصر وتقصيت عادات المصريين وفتشت عن الخلق الذى ينقصهم أكثر من أىّ خلق سواه فعلمت أنه قوة الإرادة فعولت على أن يكون اشتغالى بهذا الصنف من الأخلاق .

وراقنى هذا الخاطر فمنّيت نفسى رواجًا سريعًا وربحًا جزيلا وأننى سأكون أنفق تجارةً وأكثر عائدة من المتاجرين بيننا بالوطنية والدين لأن حاجتنا إلى الوطنية والدين أقل من حاجتنا إلى الأخلاق ولا سيما قوة الإرادة . وفى مصر كثير من الوطنيين والمؤمنين ولكن قل فيها من كملت عليه نعمة الأخلاق فغنُوا فيها عن المزيد . وذهبت أحصى أرباحى ومكاسبى فى السنة الأولى فالسنة الثانية وفى السنين التالية فضاق بها الحصر ولم يستوعبها الحساب ، وسرنى أن أحلم بأنه سوف لايكون فى الاثنى عشر مليونًا الذين يسكنون وادى النيل مصرى واحد إلا لديه مقدار كبير أو صغير من تجارتى ، فقلت أنها والله للتجارة التى لا تبور .

واكتريت الدكان فى أوسع أحياء العاصمة وأحلفها بالسابلة

والقطان وزخرفته أيما زخرفة فصفحته بالبلور وغشيت جدرانه بالذهب وصنعت رفوفه من خشب الهند ونقشت عليه لوحة من أجمل ماخط الكاتبون كتبت عليها «هذا دكان قوة الإرادة . يعطيك على نفسك سلطانًا لاحدّ له» ثم جلست على بركة الله أشمر للتعب والعمل وأخففهما عنى بما أرجوه من المنفعة لى وللناس .

فكان أول من سنح لى فى صباح أول يوم فتحت فيه الدكان رجل سكران قد تخالعت أعضاؤه من الوهن واحمرت عيناه من السهر وانعقد لسانه من الخمر فوقف قبالة الدكان يترنح ذات اليمين وذات الشمال وأوشك أن يميل على ألواح البلور فيحطمها ويكدر علينا صباح الاستفتاح بطلعته المشؤمة . ولو كنت ممن يتطيرون لأغلقت دكانى لساعتى وجزمت بالفشل ولكننى تصبرت ولبثت ألاحظه وهو تارة يحملق إلىَّ وتارة يتهجى العنوان حرفا حرفا حتى أتى على حروفه بعد عشق النفس ثم قال لى وكأن روحه تصعد مع كل كلمة !

أأنت صاحب الدكان ؟

قلت نعم

قال أنت بعينك ؟

قلت أنا هو بعينى لاسواى ...

قال وتبيع قوة الإرادة ؟؟

قلت من جميع الأصناف والأثمان

قال ولنا أيضًا تبيعها ؟؟ .. لا تؤاخذنى فإنى أحب أن أستفهم ؟؟

قلت أجل . لك ولكل من يشتريها

قال : فأنها أسهر كل ليلة كما ترى وأسكر وأقامر وأجىء فى هذه الساعة فيثقلنى النوم ولا أحب أن أنام . فهل عندك صنف من الإرادة أتسلط به على النوم ويقوينى على السهر ليل نهار ؟

قلت : ليس هذا من الأصناف الموجودة ولو وجد لما بعناه . ونحن باعة الأخلاق لا نقل فى الأمانة لصناعتنا والحفاظ بذمتنا عن الصيادلة . وقد تعلم أنت أن الصيادلة لا يبيعون كل دواء لكل طالب ولكن عندنا أصنافا أصلح لك من هذا الصنف . فهل لك فيها ؟

قال : أرنيها

فسردت له أسماء الأصناف التى فى الدكان وأريته كل صنف منها فى علبته و لم آله تفصيلا لفوائدها وترغيبًا فيها وبسطت له أسماء الإرادة المانعة . وخواصُها منه الناس عن مقارفة العادات الضارة . من التدخين إلى المقامرة ومن الكذب إلى الوقيعة . وتختلف المقادير والأثمان ، باختلاف الأدمان والأزمان .

وأصناف الإرادة العاملة وخواصها إيلاء الناس عزيمة وصبرًا على تذليل مصاعب الأعمال وتحقيق همامات الأنفس . وأرخصهاقضاء المرء واجبه ، وأنفسها قضاؤه واجب أمته ونوعه وهى أغلى من الإرادة المانعة لأن القدرة على أداء الواجب أندر من القدرة على اجتناب المحظور . وأعلى هجرك ما تؤاخذ به فعلك ما تحمد عليه . وعددت له أسماء نفر من عظماء الرجال الذين دفعتهم قوة الإرادة

ودفعت بهم أممهم إلى ذروة من الشرف تتقاصر عنها الذرى . وأطنبت فى الوصف والتحسين وهو يصغى إلىّ بما بقى فى حواسه من الانتباه ، فأطمعنى أصغاؤه فى أن يكون أول تجربة ناجعة وأصدق إعلان عن الدكان . ورأيته يطرق مليا ثم قال : ولكن من يضمن لى جودة الأصناف ويكفل نقاوتها من الأخلاط والأوشاب .

فقلت فى نفسى سبحان الله ! هذا الذى يذهب كل ليلة إلى الخمار لا يسأله أيسقية سمًا أم خمرًا . ويغشى موائد القمار يخسر كل ليلة صحته وماله ثم ينساق إليها بغير سائق لا يريد أن يشترى قوة الإرادة إلا بضامن ؟ ولكننى جاريته وقلت له : لا خوف عليك من هذه الجهة فسأعطيك علبة نموذجًا فجربها وسل من شئت من التجار ولك بعد ذلك الخيار .

* * *

انصرف السكران بالعلبة ذلك اليوم وعاد إلىّ فى اليوم الثانى مفيقًا صاحيا فجلس بتؤده وأدب وقال لى : لقد تعاطيت أمس علبتك و لم أعاقر و لم أقامر ولا أدرى أبفضل العلبة ذلك أم لنفاد المال منى . وكنت إذا نفد المال منى اقترضت ، فلم أقترض أمس ، فلا أدرى أيضًا أ كان ذلك قوة فى الإرادة أم حياءً من الرفض وكنت لا أستحى فلا أدرى والله أكان حياءى خلقا جديدًا اكتسبته منذ تعاطيت قوة الإرادة أم هو لتكرار الطلب واليأس من الإجابة .

سألنا فأعطيتم وعدنا فعدتم
ومن أكثر التسآل يوما سيحرم

على أننى سألت التجار تاجرًا فاستغربوا اسم الصنف ولونه ورائحته ومعدنه واتفقوا على أنهم لم يسمعوا به لافى الشرق ولا فى الغرب . ماعدا التاجر فلانا فقد عرفه وفحصه قليلا فرده إلى مشمئزًا وهو يقول : خذ ياشيخ ! فقد سئمنا هذا السخف والتدجيل ! وهل فرغ الناس من سلطان الهموم فيسلطوا عليهم قوة الإرادة أيضًا ؟؟ وإذا كانت عوائق الدهر تحرمك شطرًا من ملذات الحياة وأنت تحرم نفسك الشطر الباقى فأنت لاشك الذى يقال فيه أنه عدو نفسه .. فخل عنك هذه الأضاليل ولا يغرنك ما تقرأ من العناوين وما تسمع من المواعيد فلو كان فى هذه التجارة خير لما غفل عنها الناس إلى اليوم ، ولم ينسها دهاقين التجار الأزمان المتطاولة لتكون بدعة من بدع هذا الزمان المنكود .

فأسكت هذا المهذار وندمت على التفريط فى العلبة وكان أعجب ما عجبت له كلام ذلك التاجر لعلمى بأنه ممن يميزون من أمثال هذه الأصناف ويحسون بنقص السوق فيها . ولم يكن بيننا مجاورة أو مشاركة . فخفى عنى غرضه من تبغيض الناس فى بضاعة ليس بينى وبينه منافسة عليها . ولكننى وقفت فيما بعد على سبب ذلك . وهاك بيان ما وقفت عليه :

* * *

رأى فلان المذكور هذه التجارة المستحدثة فقدر لها الربح الطائل والرواج السريع ورأى أنه ليس أيسر عليه من تقليدها . شأن الأغلاق النادرة . تزبيفها كثير والغش فيها جائز ، وذاك لأن عارفيها معدودون

ولأن جاهليها يحكمون عليها باللون والرونق وليس بالثمرة والجوهر . فقرر بينه وبين شيطانه أن يستفيد من هذه الفرصة ويختص بذلك الربح فما ونى دون أن فتح له دكانا تجاه دكانى وتأنق فى ترويقه وتنظيمه ، وكتب عليه «هذا دكان قوة الإرادة الصحيحة . يعطيك سلطانًا لاحد له على ملذات الحياة» .

فتح الدكان واستأجر له دلالا سليطا يفتأ سحابة النهار يصرخ بصوت كقصف الرعود أو قرع الطبول : ياطالب الإرادة الصادقة ، حىّ على الغنيمة قبل فواتها !! ياعشاق العزيمة الماضية هلموا إلى أعظم معمل للعزيمة الماضية ، هيا إلى أرخص سلعة سعرًا وأسرعها فعلا وأصمدها على الطوارىء أثرًا . إرادة لا تتكاءدها[1] عقبة ولا تصدها عن غايتها طَلِبَة . فمن اشتهى السكر فصدته عنه مرارة الراح فليشتر من هذا الدكان فيستعذب تلك المكرارة ويعاف عندها كل حلاوة ، ومن صبا إلى الشهوات فأشفق من عقابيلها ومغباتها زودناه بقوة إرادتنا فأصبح لا يحفل بالعذل والملام ، ولا يبالى بالضيم والسقام ومن تورط فى القمار ثم تهيب خشية الإملاق والدمار ، ومخافة الفضيحة والعار ، فعندنا ما ينزع منه تلك المخافة ، ويضحكه من هواجس تلك الخرافة . وعندنا لكل مريد إرادة ، ولكل إرادة شهادة . فالبدار البدار ! قبل غلاء الأسعار فاليوم بدرهم وغدا بدينار .

فما شككت فى أن المسكين معتوه قد خسر رأسه وسوف يخسر

---

(١) تكاءدته العقبة:وقفت فى طريقه .

رأس ماله وتوقعت له الخراب الجائح القريب ، إذ من أين له يزاحمنى فى تجارتى وأنا مبتدع التجارة وهو المقلد . وأنا أبيع إرادة الجد والعمل ، وهو يبيع أرادة اللهو والكسل . ولكن سرع ما أخطأ حسابى وارتد علىّ تكهنى . وما راعنى إلا الجماهير على أبوابه يتكوفون[١] وبضائعة فى كل واد تسير ، بحيث لم تخل منها المدينة والقرية ، والبيت والحانوت ، والحانة والنادى ، ولم ينته الشهر ففتح دكانا جديدًا إلى جنب دكانه ، ودار الحول فكان له فى الحى خمسة دكاكين وأصبح أعظم تاجر فى الديار .

أما أنا فقد أعطيت فى اليوم الأول تلك العلبة لذلك السكران فكانت أول وآخر ماصدر من دكانى . ومرت أيام وأيام ، وتلتها شهور وشهور ، وتمت ثلاث سنوات مجرمات[٢] ، وأنا بتلك الحال أراقب التلف يدب فى بضاعتى وأعاين السوس ينخر فى إرادتى — وما الإرادة إلا كالسيف يصدؤها الإهمال ويشحذه الضراب والنزال — فدهشت وغضبت ثم صبرت وتعللت ، ثم يئست وسلمت ، فأقفلت الدكان وطلقت التجارة ، وها أنا ذا أسأل عن المحكمة لأودعها الدفاتر والمفاتيح .

---

(١) تجتمعون .

(٢) السنة المجرمة الكاملة .

الشجاعة والعدوى

لا أحسب أحدًا يجهل أن هناك فرقًا بين الشجاعة وحب الموت ، كفرق بين الجبن وحب الحياة . فقد يهجم اليائس الموتور على حتفه ، ويطرح بنفسه مطارح الهلكة . وهو بعدُ الجبان المنخوبُ . وربما كان هجومه هذا آية جبنه وجزعهُ . وقد يبرز الوحش الضارى للفارس الصؤول[1] أو يدهمه القطار أو يسقط عليه الحجر العظيم فيتحاشاه ويفر منه ..

* وهو الجرىء على الحمام المقبل *

وإنما يحمد الإستخفاف بالحياة والإجتراء على الموت إن كان ذلك الواجب تصغر الحياة فيها ، ويتحتم الموت لأجله . وأما فيما سوى ذلك فلا واجب على الحى أقدس من واجب صيانة الحياة ودفع الموت عنه ، ولا جناح عليه أن يحب البقاء أبد الدهر لو كان إلى البقاء سبيل .

إن كان ذلك كذلك فلا فائدة لك ولا للناس فى أن تدخل مع جراثيم الحميات والأوباء فى وقعة مشكوكٍ فيها . وأنت وحدك وهى - أبادها الله وشتت شملها - قد شبّت على الاتحاد والتكاثر وإن كانت فى جو مصر ! ؟ فتهاجمك فى الماء والهواء ، ومن بين يديك ومن تحت قدميك ، وأنت لا تراها ولا تشعر بها . ونحن مع ما نعلم

---

(١) كثير الصيال .

من أن الحكومات تكافىء كل شجاع على استقبال الموت فى حومات الوغى وبين نيران الحريق ، ما علمنا قط أنها علقت نوطا أو وسامًا على صدر أحد لأنه صارع الميكروب فصرعه وانتصر عليه . اللهم إلا إن كان بعض الأطباء قد يظفر منها بالنوط أو الوسام تنويها بنصره عليه وفتكه به . ولكننك خليق لا تغرك شجاعة هؤلاء الأطباء فانهم يحاربون الجراثيم وهى مكتوفة فى الأنابيب ومخدرة بالعقاقير وليس هذا من أصول الحرب ولا من شروط المناجزة فى شىء .

وأن من غرائب الخليقة وطرف العقول أن يكون بين إخواننا فى الآدمية من تراه يقيم فى وسط بؤرة تصعد منها رائحة البلى ، ويركد فيها الهواء من ثقل ما على كاهله من القذر والقذى ، وتسمع فيها الميكروب كالذباب .

* هزجا يحك ذراعه بذراعه *

وينادى فيها عزريل ليلا ونهارًا : ألا من حى فأزهقه ؟؟ ألا من نأمة فأسكتها ؟؟ ألا من تعب مكدود فأحمله ؟؟ ويمر أمام بصره فى تلك البؤرة مركبات الأموات حثيثة العدو من عالم الدنيا إلى عالم الآخرة .. وتقول له انج ياصاحبى بروحك واسلم بعمرك . وقد يكون من مذهبك أن من ينتظر مثل هذه النصيحة من سواه غيرُ جدير بأن يُحرمَ الحفارُ أجرةَ قبره والبزازُ ثمن كفنه . فتغلظ على نفسك وتأخذك الهوادة فى مذهبك وتنصحه بالرغم من ذلك فيقول لك : معاذ الله أن أخاف الموت أو أفر من قرب الله ... يقولها الملعون وكأنه يعتقد أن الله بعيد إلا عن تلك البؤر التى يفوح نتُنها وتطرد

الملائكةَ وخامتُها . ويقولها الملعون وهو يجهل أن عمر بن الخطاب فر من الطاعون ، ولما لامه أبو عبيدة وقال له أتفر من قدر الله ؟؟ قال نعم إلى قدر الله ... وناهيك بعمر شجاعة وصبرا وإيمانا بالله واتكالا عليه .

ولو صاحب من هذه الطغمة - ولا عارفي الصحبة - عثرت به في إحدى تلك البؤر فنصحته تلك النصيحة فكنت كأنما أخزه بها وخزًا ، وإذا هو يزورُّ عني ويلوى كشحه ويقول : أأنا أعبأ بالحميات والأمراض ؟؟ ومثلي يافلان يرضى أن يذاع عنه أنه أجفل من الموت ؟؟ وهل يدركنا الموت في مكان وينسانا في مكان ؟؟ وما كان ظنك بعقلي وأنت تنصح لي بالجلاء عن داري التي ولدت فيها والانهزام أمام عدو لاأراه ؟؟ وأين ما عودتك فيّ من الجلد وعودتني فيك من تشجيع الأصدقاء ؟؟ وو .... قلت حسبك ولكني آسف ياسيدى على هذه الشجاعة الفائقة أن لا تتصدى بها لكل قوة من قوى هذه الطبيعة المغرورة بنفسها . وما بالك تستهزىء بالموت بالجراثيم كأنك تستصغرها ولا تستهزىء بالموت غرقا أو حرقا أو صبرا[1] وهذه القواطر والسيارات والترام كثيرة في البلد ، والناس يتنحون لها عن الطريق ويفرون منها كل مفر ، فما بالك لا تثبت أمامها وتريها أنك لست من هؤلاء الناس ؟؟ بل ما بالك لا تبالغ في احتقار الجراثيم والزراية بها فتشرب قدحًا من حمض الفينيك الذى يقتلها لتبرهن لها على أنك لا تعبأ بما يميتها . فكيف بها ؟؟

---

(١) الموت صبرًا أى جوعا .

ولما رأيت أننى سألته بقدر ما سألنى ، وأجبته بمثل ما أجابنى فصلت[١] من عنده وأنا أفكر فى اقتراح أعرضه على أولى الأمر : وهو أن تجمع الحكومة أفراد هذه الطغمة وتلصق بوجوههم علامة يعرفهم بها من يراهم . حتى إذا وقف أحدهم فى طريق سيارة أو ترام أو تعرّض أمام صائد يطلق على هدفه ، لم يكفف الصائد يده ، ولم يَتعب السائق فى إيقاف سيارته أو ترامه ، فيضيع من وقت الركاب دقيقة أو أكثر لإنقاذ حياة هانت على صاحبها إلى هذه الدرجة وليست هى على الناس بأقل هوانًا .

مواضيع الملاحة

مهما تعمقوا فى تعريف الملاحة ووصف محاسن الوجه وقالوا فيها ما يشبه قولهم فى السحر أو الروح واليوم الآخر ، فلا إخالها تُرَد فى بادىء أمرها إلا إلى إنها شارة فى أظهر عضو من الجسم — أعنى لوجه — كانت ولا تزال فى بعض الأحيان تدل على فضيلة جنسية فى جسم الرجل أو المرأة .

إن أظهر ما تظهر الملاحة من معارف الوجه فى العين والشفة لأنهما الجارحتان اللتان ترتسم فيهما حالة النفس وإحساسها بغاية الوضوح والجلاء ، وبهما تختلف أمة عن أمة وجنس عن جنس فالعربى والمصرى والصينى والانكليزى والألمانى وغيرهم من الملل والأمم يتماثلون بالعيون والشفاء . وكذلك الرجل والمرأة أصدق وأوجز ما

---

١) أى خرجت .

يقال فى هاتين الجارحتين أنهما نافذة النفس فمنها تطل على العالم ومنها يطل العالم عليها . ولعل ما تكشفه منا وللناس أكثر مما تكشفه من الناس لنا .

لابد من صلة محكمة دقيقة بين العين والرأس لأن نظرة العاقل غير نظرة المجنون وقل مثل ذلك فى الغادر والأمين ، والفظ الوديع ، والسقيم والسليم ، والشهوان والعفيف ، فإن لكل منهم نظره غير نظرة الآخر . أما صلة الرأس بالجسم وما يندمج فيها من الطبائع فمعلومة ملحوظة . فالعين بهذه المثابة هى عنوان صفة النفس ومزاج الجسد .

ولابد من صلة بين الشفة والإحساس لأن الشفة هى ملتقى أعصاب الوجه وهى أدق أعصاب الجسم . فلا تهيج فى الجسم هائجة ولا تسكن به ساكنة إلّا بدا لها أثر على الشفة . فتفتر أو تهتدل أو تنقبض أو تتقلص أو ترتجف . وترى الإحساس فى الشفة يتوق إلى مقابلة مثله لأن الإحساس يبلغ فيها أشده – وهذا هو الميل إلى اللثم والتقبيل – نعم أن الأعضاء كلها تميل إلى المماسة ، ولكن الميل لا يكون إلا على قدر إحساس كل عضو . فلا تميل اليد إلى اليد كميل الشفة إلى الشفة لأن الفرق بينهما فى الإحساس كالفرق بين المصافحة والتقبيل . وقد وضعت هذه الحساسية فى الفم لأنه هو باب الجوف ، والجوف بحاجة إلى حاسة ظاهرة تجيد له حبس الأشياء قبل وصولها إليه . وقد نرى الأعمى لا يعتمد فى حبس الأشياء إلا على شفتيه لأنه حين فقد البصر وأصبح معتمده على الحس وحده لا يشعر فى جسمه بما هو ألطف على المس من شفتيه .

فالشفة هى ترجمان الاحساس ومحبس العواطف . وإذا كان فى الإنسان خاصة تتصل بالإحساس كان أحرى الجوارح أن تظهر عليه تلك الخاصةُ الشفةُ . فقليلاً ما يلتبس عليك الصابر الكظوم بالقلق اللجوج أو الأريب الكيس بالحُمّيقة الأبله ، من التأمل فى شفاههم وهيئة أفواههم ، وإذا التبسوا عليك ساعة الهدوء والصفو لا يلبسون ساعة الغضب والاهتياج .

ولرب وجه صبوح جميل يروقنا استواء خلقه واعتدال تقسيمه ويحيرنا نقد معارفه وقسماته . ولكننا يؤلمنا أن لا نتملى من ذلك الوجه بحظ الاستحسان الذى شوّقنا إليه منظره . ووجه أقل منه جمالاً وصباحة وأخفى روعة ورواء وهو يسبينا ويثير بلابلنا ويستولى على إعجابنا : وقد ننسب ذلك أحيانًا إلى اختلاف الأذواق أو خفة الدم ، ولو أنعمنا النظر فى ذينك الوجهين لم يطل بحثنا عن السبب وعلمنا أن ما نسميه تارة باختلاف الأذواق وتارة بخفة الدم هو معانى تتضمنها العيون والشفاه ليست من جمال الصورة ، على أنها هى شطر الجمال الأكبر . وهى التى تفيض على ذلك التناسب الهندسى الممول روحًا حيًا جذابًا .

إن لكل عضو جمالها الخاص به وجمال العيون والشفاه عام لا يجمل الجمال إلا به . ولو نظرنا إلى مزية فى العيون والشفاه تجعل لها هذا الشأن فى تقدير الجمال غير اتصالها بالاحساس ذلك الاتصال الذى المعنا إليه لما أبصرنا لها أى مزية سواها . فلماذا لا نقول أن الأصل فى حب الجمال هو امتحان قابليات الجسم بأظهر جزائه للناظر ؟؟

أفي ذلك بخس للجمال ؟؟ ما الجمال إلا صبغة لا تفارق الجسوم ، فكيف نوفق بين احتقار الجسم وتنزيه صبغته ؟؟

هذا كلام لا يرضى به عشاق الجمال ولا يروقهم أن يكون حبهم له نوعًا من حبس النبض وفنًا من الفراسة . فان كان إرضاؤهم لابد منه فليذكروا أن جمال أجدادنا لا يستحق أكثر من ذلك ، وأننا لم نرث جمالنا وعواطفنا من غير أولئك الأجداد .

الفهرس

الموضوع	الصفحة


نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع

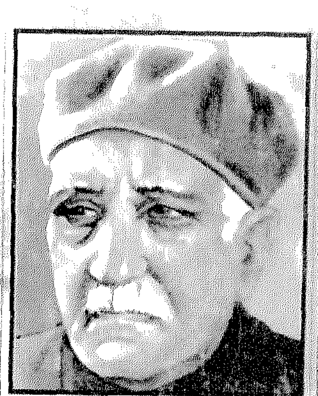




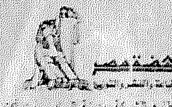








١ - الله .
٢ - إبراهيم أبو الأنبياء .
٣ - مطلع النور أو طوالع البعثة المحمدية .
٤ - عبقرية محمد .
٥ - عبقرية عمر .
٦ - عبقرية الإمام على بن أبى طالب .
٧ - عبقرية خالد .
٨ - حياة المسيح .
٩ - ذو النورين عثمان بن عفان .
١٠- عمرو بن العاص .
١١- معاوية بن أبى سفيان .
١٢- داعى السماء بلال بن رباح .
١٣- أبو الشهداء الحسين بن على .
١٤- فاطمة الزهراء والفاطميون .
١٥- هذه الشجرة .
١٦- إبليس .
١٧- جحا الضاحك المضحك .
١٨- أبو نواس .
١٩- الإنسان فى القرآن .
٢٠- المرأة فى القرآن .
٢١- عبقرى الإصلاح والتعليم الإمام محمد عبده .
٢٢ - سعد زغلول زعيم الثورة .
٢٣- روح عظيم المهاتما غاندى .
٢٤- عبد الرحمن الكواكبى .
٢٥- رجعة أبى العلاء .
٢٦- رجال عرفتهم .
٢٧- سارة .
٢٨- الإسلام دعوة عالمية .
٢٩- الإسلام فى القرن العشرين .
٣٠- ما يقال عن الإسلام .
٣١- حقائق الإسلام وأباطيل خصومه .
٣٢- التفكير فريضة إسلامية .
٣٣- الفلسفة القرآنية .
٣٤- الديمقراطية فى الإسلام .
٣٥- أثر العرب فى الحضارة الأوربية .
٣٦- الثقافة العربية .
٣٧- اللغة الشاعرة .
٣٨- شعراء مصر وبيئاتهم .
٣٩- أشتات مجتمعات .
٤٠- حياة قلم .
٤١- خلاصة اليومية والشذور .
٤٢- مذهب ذوى العاهات .
٤٣- لاشيوعية ولا استعمار .
٤٤- الشيوعية والإنسانية .
٤٥- الصهيونية العالمية .
٤٦- أسوان .
٤٧- أنا .



طبع بمطابع الشركة بمدينة السادس من أكتوبر